

من الشرق والغرب



التعاونية في الإسلام

بقلم

مراد محمد على



اهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ محمد راغب عباس

وكيل وزارة الثقافة سابقا



من الشرق والغرب



التعاونية في الإسلام

تأليف : مراد محمد على



بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

« الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » .

« الناس بخير ما تعاونوا » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

دعوة قوية الى « التعاون » نادى بها الاسلام منذ نزوله .

ما تفاصيل هذه الدعوة ؟ .

والى اى حد تقبلها وطبقها المجتمع الاسلامى الاول ، مجتمع صدر الاسلام ؟ .

ثم ما علاقة المجتمع الجديد — الاشتراكى الديمقراطى التعاونى — الذى نسعى اليه بهذا المجتمع الذى عملت الدعوة الاسلامية على ايجاده ثم بنائه وتدعيمه منذ شروقها ؟ .

هذه الدعوة الثورية للتعاون الاشتراكى الديمقراطى التى حمل مشعلها « جمال عبد الناصر » ، هل هى مستوردة أو نابعة من تقاليدنا ومعتقداتنا ، دخيلة أو اصيلة ، شرقية هى أو غربية ؟ .

أسئلة دارت فى ذهنى ، ولعلها دارت فى أذهان الكثيرين غيرى وكلها دفعتنى الى تقديم هذا البحث ، محاولا به القاء ضوء على كل من الدعوة الاسلامية الخالصة وقت شروقها ، والحركة التعاونية بمبادئها وأهدافها الأصيلة التى انتشرت فى انحاء العالم ، لنرى أى قـــدر من الاتفاق أو التناقض يحكـــم العلاقة بينهما ؟ .

والله الموفق .



تمهيد

التعاون: تعريفه - تاريخه أهدافه - مبادئه

أولا — تعريف التعاون :

يفهم من المعنى اللفظى للتعاون أنه عملية لا يمكن ان تتم عن طريق شخص واحد ، بل لابد من اشتراك اثنين او اكثر فيها لكى يمكن ان نتصور وجود صورة من صور التعاون .

والمفهوم ايضا من لفظ « التعاون » أنه يهدف الى تحقيق الخير والعمل لمصلحة المجموع ، وان كان بعض الباحثين يعتبرون التعاون على الشر صورة من صوره .

كذلك التعاون الذى يهدف الى اســتغلال مجهود فرد او جماعة لمصلحة فرد أو جماعة اخرى قد يعتبر أيضا صورة من صوره .

والتعاون لا نتصور معه الســـلبية ، وانما هو مقترن بالايجابية ، فلا بد أن يقوم المتعاون ببذل شيء ما ، سواء أكان هذا الشيء جهدا أم مالا ، أو غير ذلك .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نورد آراء بعض المفسرين فى تعريف التعاون :

« فالتعاون هو اشتراك شخصين أو أكثر فى أداء عمل ما بحيث يعمل الفرد لمصلحة الجماعة كما تعمل الجماعة لمصلحة الفرد ، ويفيد الواحد من عمل الجماعة ، كما تفيد الجماعة من عمل الواحد » .

« والتعاون اتحاد موارد كل فرد وقــدرته مع موارد وقدرة آخرين وتنسيقها بحيث تكون مجهودا واحدا مشتركا بغية الوصول الى نتائج يسعى اليها مجموعهم »

« والتعاون نظام اقتصادى يستهدف رفع المســتوى المادى للآخذين به من الافراد ، وهو نظام اجتماعى يقوم على نشر العلم بين المتعاونين من جهة ، وبينهم وبين المجتمع من

جهة اخرى ، الى ان يصبح التآخى وحب التضحية وانكار الذات والاعتماد على النفس عادة وطبيعة وخلقا بين سائر أفراد المجتمع » .

ثانيا ــ تاريخ التعاون :

عندما نتناول هنا تاريخ التعاون ، فاننا سوف نقصر حديثنا على تاريخ التعاون المنظم ونهضته الحديثة ، لاالتعاون الفطرى الذى نشأ منذ نشأة الانسان ، كما أننا فى حديثنا عن هذا التاريخ انما نحتفظ بوجهة نظر خاصة به الى آخر هذا البحث .

ويعتبر مؤرخو التعاون فى انجلترا مهد الحركة التعاونية الحاضرة ، لما ظهر فيها من دعاة نادوا بأول مبادىء وضعت للتعاون وطبقوها ، ونجحوا فيها ، حتى نقلت عنهم دول كثيرة هذه المبادىء وطبقتها بما يتلاءم مع ظروفها وبيئتها .

ويرجع الفضل فى ظهور الحركة التعاونية وانتشارها بهذه البلاد الى الانقلاب الصناعى الذى حدث ابتداء من النصف الآخر من القرن الثامن عشر .

فقد أدى هذا الانقلاب الى زيادة الهوة التى تفصل بين الطبقة الغنية ، وهى أقلية ــ والطبقة الفقيرة ــ وهى أكثرية ــ وأصبحت هذه الطبقة الاخيرة أمام مأزق حرج كان عليها أن تستسلم له فتزداد بؤسا على بؤس ، أو تتحد لمواجهته والتغلب عليه .

لقد ظل النظام الصناعى السائد فى أوربا حتى منتصف القرن الثامن عشر يعتمد على شخص العامل ومهارته ، وكان هذا يجعل للعامل مركزا قويا لدى صاحب العمل ويقرب الفرق بينه وبين هذا الأخير ، فضلا عن أن الفرصة كانت سانحة أمام أى عامل لكى يتحول الى صاحب عمل .

ومع بداية النصف الاخير من القرن الثامن عشر بدأ سيل من المخترعات يبدد هدوء هذا العالم ، وكان كل اختراع جديد ينقص من قيمة العامل ، ويزيد من سيطرة صاحب العمل .

ثم كانت انجلترا صاحبة السبق فى ظهور الاختراعات بهذه الفترة .

فقد قام جيمس وات باكتشاف قوة البخار ، ففتح به بابا واسعا أمام الصناعة لكى تتطور من الاعتماد على أيدى العمال الى الاعتماد على شيء أقوى وأوفر ، ثم جاء ستيفنسن ليكمل الحلقة باختراع القاطرة البخارية التى سهلت تصريف كميات البضائع الضخمة التى تنتجها الآلات ، وأتاحت الفرصة لانتاج اكثر .

وقد تركزت الصورة الاولى لهذا الانقلاب فى مقاطعة لانكشير حيث تنتشر صناعة النسيج ، فازدادت الفوارق اتساعا بين العامل وصاحب العمل ، وازداد بؤس الاول فى حين ازداد ثراء الآخر .

وأخذ هذا الانقلاب الصناعى ينتشر فى مختلف البلدان ويمتد الى نواحى النشاط الزراعى أيضا .

وأصبح فى حكم المستحيل أن ينتقل العامل من طبقته الى طبقة صاحب العمل لان رأس المال الضخم الذى يتطلبه هذا الانتقال يقف حائلا دون ذلك .

وبقدر ما ازدادت سيطرة صاحب العمل واستبداده ازداد خضوع العامل وخنوعه ، فكان أصحاب الاعمال يقومون باختيار الكثير من عمالهم من بين النساء والاطفال لرخص اجورهم ، ولم يربطوا أنفسهم بقواعد معينة فيما يختص بساعات العمل أو أيام الراحة أو المحافظة على صحة عمالهم .

من ذلك الجو المفعم بالبؤس والشقاء انبثقت زعامات شعبية آمنت ان التعاون هو الحل الامثل لمواجهة هذا الموقف والتغلب عليه ، فدعت الى التعاون .

وظهر (روبرت اوين) الملقب بأبى التعاون فنادى بحق العمال فى أن تتوافر لهم الراحة والرفاهية والتعليم والصحة ، وقد بدأ بنفسه فى تطبيقه لدعوته ، لانه كان صاحب أحد مصانع الغزل باسكتلندا .

ونجحت دعوة (روبرت آوين) وزادت أرباحه زيادة دفعته الى وضع نظام عام يمنح العامل حقه كانسان ، ودعا

الحكومة الى تبنيه وتطبيقه ثم قام بانشاء جمعيات زراعية وصناعية تكون مصادر الثروة فيها ملكا شائعا بين افرادها، وتقوم هذه الجمعيات بتوفير جميع حاجات هؤلاء الافراد فى حياتهم الاقتصادية والاجتماعية .

وبعد وفاة (اوين) خلفته مجموعة من تلاميذه الذين واصلوا تطبيق مبادئه ، بانشاء عدد كبير من الجمعيات التى وضع « اوين » نظامها ، ولم يكن نجاح مثل هذه الجمعيات سهلا ، فقد كان يتطلب صبرا ومثابرة لاعداد القاعدة الشعبية التى يمكن أن يرتكز عليها الدعم التعاونى .

وهكذا تلاشت هذه الجمعيات بوفاة الداعين لانشائها ، ولكنها قبل أن تتلاشي وضعت حجرا صلبا فى بناء القاعدة التعاونية ، وبرغم تلاشي هذه الجمعيات فان جذوة الحركة بقيت مشتعلة تنتظر الوعى الذى ينفخ فيها لتضيء من جديد .

ففى سنة ١٨٤٤ اجتمع عدد من عمال النسيج البائسين فى قرية صغيرة بمانشستر ، اجتمعوا ليعاودوا حمل مشعل الحركة التعاونية ، الذى لم ينطفىء بعد ذلك ، وانما انتشر نوره حتى شمل كل الارجاء .

وظهر فى دول عدة مصلحون آمنوا بالتعاون وسيلة لاصلاح حال شعوبهم فاتخذوا من مبادئه أساسا يقيمون عليه البنيان الذى يتلاءم مع ظروف بلادهم ومقتضيات شعوبهم .

فتزعمت المانيا حركة التعاون فى الاقراض ، وعنها اخذت بلاد كثيرة مثل المجر والنمسا . وقد دعا الى هذا النظام اثنان من زعماء الاصلاح الالمان هما (فردريك رايفايزن) و (شولز ديلتش) وقد كانت بلادهما تحتاج فعلا الى هذا النوع من التعاون الذى اثبت تطبيقه انه كان خير علاج لمشاكل شعبها ، ولكى نبين الى اى حد من النجاح وصل هذا النظام عند تطبيقه فى المانيا ، نسوق فقرة قصيرة من مؤلف المانى عن (التعاون فى داخل البلاد وخارجها) للبروفيسور فاى ، وقد شجعنا على ايراد هذه الفقرة أنها لا تبعد بنا كثيرا عن الحالة التى كان بها ريفنا والحالة التى يسير اليها الآن .

يقول البروفيسور فاى :

« على بعد ساعة من نويفير التى على نهر الراين قرية « انهاوسن » الصغيرة القائمة على هضبة فى سفح جبال فسترغالد ، واراضي هذه المنطقة ليست خصبة ، واهلها ملاك صغار ، لايملك بعضهم من الارض اكثر مما يكفى مرعى ثور او بقرة ، حتى أن من يملك منهم عشرة افدنة يعدونه ثريا ، وكانت هذه القرية قبل سنة ١٨٦٢ فى حالة سيئة، اذ كانت مبانيها مهدمة وافنيتها مرتبكة النظام ، واذا أمطرت السماء تراكمت فى طرقاتها الاوحال ، واينما نظرت لاتجد الا كومات سباخ ، كما ان الاهالى كانوا فى حالة يرثى لها ماديا وخلقيا ، فقد تجاوز تعاطى المسكرات فيها كل حد ، وانتشرت الدعارة ، وعمت المشاجرات ، وصار كل ما فيها من بيوت أو ماشية ملك للتجار اليهود الا قليلا .

اما الآلات الزراعية فكانت قليلة وغير صالحة للاستعمال ، وأما الحقول فلم تكن مهيأة للزراعة كما ينبغى ، فلا تنتج الا القليل . وقد بلغ البؤس عند القرويين حدا صاروا معه عبيدا للتجار وأرقاء للمرابين.

اما اليوم فقد تغيرت حال « انهاوسن » واصبحت قرية نظيفة ، تلوح على اهلها سيما الدعة ، فبيوتهم مهندمة ، وافنية ضياعها منتظمة حتى فى ايام العمل ، وكومات السباخ فى الحقول معتنى بها ، وملابس السكان نظيفة على بساطتها، وأخلاقهم محمودة ، وقد تحسنت حالتهم المادية فأصبحوا يملكون المواشي التى فى حظائرهم ، وليس عليهم ديون للتجار ولا للمرابين . وكل الزراع تقريبا يستعملون الآلات الحديثة ، وقد علت قيمة مزارعهم وفلحوا أراضيهم بعناية ونظام فأنتجت المحصولات الكثيرة .

وكل هذا التغيير الذى يعجز أن يوفيه حقه الوصف أو الاحصاءانما نتج عن انشاء مصرف تعاونى من مصارف رايفايزن فى هذه الجهة .

وفى فرنسا اقتضت الظروف ان تأخذ الحركة التعاونية بها شكلا تعاونيا صناعيا للعمال ، حيث كانت هذه الطائفة

التى تمثل عددا كبيرا من شعبها تلاقى من العنت والارهاق مالا يمكن لطاقة بشرية أن تتحمله .

فظهــر فى هذه البلاد مصـــلحون اجتماعيون امثال (سان سيمون) و (فرانسوافوريير) و (فيليب بوشيز)و (لويس بلان) الذين تزعموا الحركة التعاونية الصناعية بين العمال فى فرنسا ، ومنها انتشرت الى كثير من انحاء العالم .

اما ايطاليا فقد اخذت نظامها عن ألمانيا وطبقته بعد ادخال بعض التعديل عليه ، اذ أن الظروف كانت متشابهة الى حد بعيد فى كلا البلدين ، وقد تزعم النهضـــة التعاونية فى ايطاليا (لويجى لوتساتى) الذى كان له أثر ــ ســـوف نذكره ــ فى تاريخ التعاون فى بلادنا .

وتاريخ التعاون فى مصر يرجع الى سنة ١٩٠٨حين ظهر الرائد التعاونى (عمر لطفى) مناديا بحق الفلاح فى الحياة الحرة الكريمة ، ومؤمنا بأنه لايوجد سوى التعاون وسيلة لتوفير هذه الحياة له .

وقد تتلمذ (عمر لطفى) على (لويجى لوتساتى) زعيم التعاون فى ايطاليا ، وعاد ليبشر بالتعاون ويدعـــو له فى الاوســـــاط الرسمية والشعبية ، وقام فعلا بتأسيس بعض الجمعيات التعاونية والإشراف عليها .

ولكن الموت لم يمهل (عمر لطفى)طويلا حتى يتم رسالته، فما لبث أن توفى فى ٤ من نوفمبر سنة ١٩١١ بعد أن وضـــع بذرة التعاون التى قرر لها أن تنمو وتزدهر فى عهــد ثورتنا الحاضرة .

ثالثا ــ أهداف التعاون :

قد تختلف الجمعيات والمنشآت التعاونية اختلافا بينا ، سواء فى تكوينها أو أغراضها ، ولكنها جميعا تشـــترك فى ايمانها بأهداف التعاون ، والعمل على تطبيقها فى الجـــانب الذى يتناوله نشاطها .

فالتعاون بوصف علم يهدف الى المحافظة على دخـــول

الافراد وزيادتها ، وهو فى سبيل ذلك يحاول الغاء الوسيط المستغل فى كل فرع من فروع التجارة ليوفر ربحه للمنتفعين ، كما يحاول أن يحصـــل على أجود الســـلع بأرخص الاثمان لتوصيلها الى المستهلك،كما يشجع المتعامل على جعل معاملاته بالنقد حتى لايتورط فى ديون تزيد عن طاقته كما أنه يرد فى النهاية الارباح التى حصل عليها الى المتعاملين فى صـــورة عائد .

ومن الناحية الاجتماعية يهدف التعاون الى اقامة نظام من التكافل الاجتماعى ، فيحض على أن يساند القـــادر غير القادر ، كما تنص نظمه على تخصيص جزء من الارباح للمعونة الاجتماعية ، يضاف الى ذلك ان تكوين الجمعية نفســـه ونظام العمل فيها يشملان من صور الديمقراطية مايكفل قيام مجتمع قويم متماسك .

وعند ما يتناول التعاون الناحية الثقافية فانه يجعل منها هدفا ومبدءا فى الوقت نفسه ، فالتعـــاون يرى أن التعليم هو خير الوسائل لنشر دعوته والمحافظة عليها وانمائها .

رابعا ـــ مبادىء التعاون :

استن التعاونيون الاوائل مبادىء واسسا تبلورت بمرور الايام حتى اصبحت هذه المبادىء للتعاون والتعاونيين تقـــاليد عالمية هى لهم بمنزلة العقيدة الراسخة .

وعند ما أسس رواد روتشديل جمعيتهم التعاونية الاولى عام ١٨٤٤ لم يضعوا قواعد بعينها لتكون مبادىء للتعاون ، بل ساروا فى طريق تعاونى قويم مسترشدين بايمان عميق بأن التعاون هو الوسيلة المثلى لحل مشاكلهم .

ومن هذا الطريق الذى ساروا فيه استنبط من لحقهم من التعاونيين هذه المبادىء التى يبنى عليها التعاون الآن .

وقد ادى ذلك الى اختلاف كبير فى الاتفاق على تقسيم موحد لمبادىء التعاون، وان كانت جميع الآراء التى تناولت هذا الموضوع قد اتفقت فى مضمونها ومرماها .

وسنحاول هنا أن نعرض أهم وجهات النظر التى تناولت وضع هذه المبادىء وتقسيمها .

فهناك من يقسم هذه المبادىء الى :

١ ــ باب العضوية المفتوح .

٢ ــ الديمقراطية فى الادارة .

٣ ــ العدالة .

٤ ــ الاقتصاد والتوفير .

٥ ــ العلانية .

٦ ــ الوحدة .

٧ ــ الحرية .

وفى تقسيم وضعه التعاونى (وارياس) يرى أن هذه المبادىء تنحصر فيما يلى :

١ ــ مبدأ الادارة الديمقراطية .

٢ ــ مبدأ الفائدة المحدودة على رأس المال .

٣ ــ مبدأ توزيع العائد على الاعضاء بنسبة معاملاتهم .

كما يرى البعض اضافة مبدأ رابع الى هذه المبادىء هو مبدأ : « باب العضوية المفتوح » .

ويرى آخرون ادماج بعض هذه المبادىء أو اعتبار بعضها سياســة وليس مبدءا ، وثمة رأى آخر يرى ان أهم مبادىء التعاون هى :

١ ــ الفرد للمجموع والمجموع للفرد .

٢ ــ مبدأ الاعتماد على النفس .

٣ ــ مبدأ شيوع الخدمة .

ويقول (اندروز) التعاونى الســويدى : ان مبادىء التعاون سبعة هى :

١ ــ يمول الاعضاء جمعيتهم بالقدر اللازم من المال ويتقاضون عنه فائدة محدودة .

٢ ــ لاتتعامل الجمعيات الا فى النقى النظيف الجيد من السلع .

٣ ــ تلتزم الجمعيات فى أعمالها الامانة التامة فى ميزان ما تبيعه ، وفى المقاييس والمكاييل .

٤ — توزع الجمعيات بضائعها بسعر السوق المحلية وتتجنب البيع بالاجل ولا تشترى الا بالنقد .

٥ — يوزع جزء من الفائض السنوى على الاعضاء يكون بقدر ما اشتراه كل عضو من الجمعية .

٦ — لكل فرد صوت واحد فى ادارة الجمعية ، وللنساء ما للرجال من كامل الحقوق فى التصويت وغيره .

٧ — تخصص نسبة مئوية من الفائض السنوى لنشر العلم وللأغراض الثقافية الأخرى .

وواضح أن هذا التقسيم قد اشتمل على سياسات يمكن ان تتم داخل نطاق المبادىء ، ولكن لايمكن اعتبار ما جاء به مبادىء .

وفى سنة ١٩٣٠ أحال مؤتمر فينا التعاونى هذا الموضوع الى لجنة خاصة لدراسته ، وبعد بحث واستقصاء تناول الحركات التعاونية فى العالم ، وضعت اللجنة تقريرا قدمته الى المؤتمر الرابع عشر للحلف التعاونى الدولى المنعقد بلندن سنة ١٩٣٤ وقد قسم هذا التقرير المبادىء التعاونية الى :

١ — باب العضوية المفتوح .
٢ — السيطرة الديمقراطية على أعمال الجمعية .
٣ — رد العائد الى الاعضاء بنسبة معاملاتهم .
٤ — الفائدة على رأس المال المسهم به .
٥ — الحياد السياسي والدينى .
٦ — التعامل بالنقد .
٧ — التعليم التعاونى .

وبعد ذلك انعقدت هيئة المؤتمر لمناقشة التقرير وما تلقته من ملاحظات بشأنه ، ومن بينها مذكرة من الوفد البريطانى بالمؤتمر يقترح فيها تعديلا للتقسيم الذى وضعته اللجنة بحيث يصير كما يلى :

١ — باب العضوية المفتوح .
٢ — السيطرة الديمقراطية .
٣ — الغاء الربح عن طريق رد العائد وتحديد الفائدة على رأس المال المسهم به .

وفى سنة ١٩٣٧ عقد مؤتمر باريس التعاونى حيث تم تقسيم المبادىء فيه الى قسمين رئيسيين :

القسم الاول ويشتمل على المبادىء الاساسية :

١ ــ باب العضوية المفتوح .
٢ ــ السيطرة الديمقراطية .
٣ ــ رد العائد بنسبة المشتريات .
٤ ــ الفائدة المحدودة على رأس المال .

والقسم الآخر ويشتمل على المبادىء الفرعية :

١ ــ الحياد السياسي والدينى .
٢ ــ البيع نقدا .
٣ ــ نشر العلم .

ولعل هذا التقسيم الاخير هو اكثرها استقرارا حتى وقتنا الحاضر .

وفى بحثنا هذا سنحاول ان نجمع كل وجهات النظر التى تناولت هذا الموضوع فى تقسيم يشملها كلها لنجعله أساسا لبحثنا على الوجه الآتى :

١ ــ مبدأ باب العضوية المفتوح .
٢ ــ الادارة الديمقراطية .
٣ ــ نشر العلم .
٤ ــ البيع بالنقد .
٥ ــ الحرية .
٦ ــ العائد على المعاملات .
٧ ــ الاقتصاد والتوفير .
٨ ــ مبدأ العلانية .
٩ ــ الوحدة .
١٠ ــ العدالة .

الفصل الأول

باب العضوية المفتوح

« لكم دينكم ولي دين »

قرآن كريم

(ان اول مبادىء الجمعية الا تستعلم حين قبولها أى عضو من اعضائها عن أى دين يعتنق؟ وما اتجاهه السياسي ؟) .

ابراهام هوارد

رئيس مجلس

ادارة الجمعية التعاونية الاولى

ومبدأ باب العضوية المفتوح يعتبر من أهم مبادىء الحركة التعاونية .

ومؤدى هذا المبدأ أن الجمعية أو المنشأة التعاونية تقبل فى عضويتها كل من يرغب الانضمام لتلك العضوية ، بصرف النظر عن جنسيته ، أو لونه ، أو عقيدته ، أو عمله ، أو عمره ، اى أن بابها مفتوح للدخول .

كما ان فتح باب الجمعية لمن يرغب فى الخروج يؤلف الشطر الآخر من هذا المبدأ .

وقد اعتبر التعاونيون هذا المبدأ معبرا عن الجانب الانسانى فى الحركة التعاونية ، فقد عقد بلندن فيما قبل (الروتشد اليون) مؤتمر : فى عام ١٨٣٢ وكان من بين قرارات هذا المؤتمر التى اعلنت فى ذلك الوقت :

« أن التعاونيين تشملهم جمعياتهم كمساهمين وعاملين معا ، فاذا كانوا منتمين الى حزب أو أحزاب مختلفة أو كانوا من ديانات متباينة فغير مسموح فى هذه الجمعيات بأن تحقق شخصيتهم أو ان تعاملهم على أساس حزبيتهم ، أو دياناتهم أو نزعاتهم السياسية ، حتى لو كانوا مشايعين لشخصية كروبرت أوين او أى رجل آخر .

هكذا ولد هذا المبدأ مبكرا فى الحركة التعاونية ، ثم جاءت الجمعية الأولى لتتبناه وتدعمه ، ففى عام ١٨٦١ أعلن ابراهام هوارد رئيس مجلس ادارة تلك الجمعية فى بيان له وزع على الصحف الانجليزية فى ذلك الوقت ان :

« اول مبادىء الجمعية الا تستعلم عند قبولها أى عضو من اعضائها : اى دين يعتنق ؟ وما اتجاهه السياسي ؟ وهذا مبدأ اتبعته الجمعية وتتبعه معها جميع الجمعيات القائمة الآن .

« أما المبدأ الثانى فهو أن الفروق السياسية والدينية للأعضاء لاتلقى أى اعتبار ولا تدخل فى حسابنا ، والا امتنع علينا وتعذر على

مجالس ادارتنا اداء اى نشاط قد يؤول لمصلحة أى فرد ينتمى لاى مذهب أو عقيدة » .

ويقول التعاونى الانجليزى (ميرسر) :

ان الحركة التى تتكون من الناس جميعا وعلى مبدأ من عمومية المشاركة بقطع النظر عن الجنس والعقيدة حركة عامة فى أغراضها ، عامة فى أهدافها ، عامة فى روحها الشاملة التى تحيط ببنى الانســـان فترفع من قدرهم وتجعل الحياة التضامنية خليقة بأن نحياها على أساس من الثقة المتبادلة ، وتكافؤ الفرص .

واذا حاولنا تطبيق هذا المبدأ من الوجهة العملية فاننا نجد ان الظروف لم تتناول مبدءا من مبادىء التعاون بالتعديل كما تناولت هذا المبدأ .

فقد التزم الرواد الاوائل هذا المبدأ فى جمعياتهم ، التزموه بأمانة ودقة ، وفتحوا أبواب العضوية لكل من يرغب الانضمام الى الجمعية أو الانفصال عنها ، ولم يميزوا فى ذلك بين عضو وآخر مهما كانت الاسباب. وقد دعا ذلك الكثير من المفكرين الى أن يلقبوا الحركة التعاونية الناشئة فى ذلك الوقت (بحركة الجمعيات المحايدة) .

ثم اخذت الحركة فى الانتشار بعد ذلك ، وفى كل خطوة تخطوها وفى كل عام يمر عليها كانت تصادفها ظروف جديدة تدفع المبدأ الى التبلور فى أشكال جديدة تتلاءم مع تلك الظروف .

فاذا تناولنا الشطر الاول من هذا المبدأ وهو الخاص بحرية الدخول، وجدنا من ينادى من بين التعاونيين باشتراط قواعد خلقية أو معنوية معينة لابد أن تتوافر فيمن يرغب الانضمام الى عضوية الجمعية ، ودافعهم الى ذلك هو الرغبة فى المحافظة على مستوى الحركة التعاونية وحمايتها من كل دخيل يرغب فى هدمها بواسطة الانتساب اليها .

كما نجد أنه جاء وقــت على الجمعيات حاولت فيه الانكماش فى العضوية حتى لايتضخم رأس مالها ، ولا تجد المجال المناسب لاستثماره ، ولتحقيق هذا الغرض وضعت تلك الجمعيات شروطا خاصة للانضـــمام اليها ، كأن يكون العضو بالغا سن الرشد ، أو أن تقصر العضوية على ربات البيوت أو أربابها على حسب الفئة التى تعاملها الجمعية .

وفى الوقت الحاضر نرى أن اغلب الجمعيات التعاونية تلتزم هذا المبدأ داخل حدود معينة : فهناك جمعيات مهنية يقوم بتأسيسها جماعة من

ابناء مهنة واحدة لمواجهة الصعوبات التى قد تعترض عملهم فى هذه المهنة ، ومثل هذه الجمعية تلتزم تطبيق مبدأ فتح باب العضوية فى حدود ابناء المهنة التى انشئت من أجلها . كما يحدث مثلا عند انشاء جمعية تعاونية لصيادى الاسماك .

وهناك جمعيات تنشأ على أساس مزاولة نوع معين من النشاط ، كجمعية التأمين على الماشية ، فهذه لاتقبل فى عضويتها شخصا ليس فى حيازته مواش .

وثمة جمعيات تعاونية تقوم لخدمة منطقة معينة كالجمعية التى تقوم فى احدى القرى ، فان مثل هذه الجمعية قد تفتح باب عضويتها أمام كل سكان القرية التى تعمل بها ثم تغلق هذا الباب أمام من عداهم .

ومن ناحية أخرى نجد أن بعض الجمعيات تضع شروطا اخرى لدخولها ، كأن تفرض رسما معينا للدخول مضافا الى قيمة السهم ، أو ان تشترط الحصول على تزكية عضو أو اكثر من اعضائها للمساهم الجديد .

أما الشطر الآخر من مبدأ باب العضوية المفتوح وهو الخاص بحرية الخروج من عضوية الجمعية فقد شملته الظروف بالتغيير أيضا.

فبعد أن كانت الجمعيات التعاونية فى عهدها الاول تسمح للعضو بالاستقالة مع الحصول على راس ماله فى اى وقت يشاء ، نجد ان الجمعيات التعاونية فى الوقت الحاضر قد رات أن فى ترك الحبل على الغارب لكل من يرغب فى ترك الجمعية والحصول على قيمة اسهمه ، قد يؤدى الى احداث هزات عنيفة تزعزع مركز الجمعية المالى ، كما أنه قد يحرمها أموالا هى فى أشد الحاجة اليها لتوسيع أعمالها والاستمرار فى نشاطها .

وقد اختلفت الجمعيات فى القواعد التى رسمتها لخروج من يرغب الانفصال عن عضويتها .

فتشترط بعض الجمعيات أن يخطرها العضو قبل انفصاله بفترة معينة ، كما تضع جمعيات أخرى حدا اقصي لعدد الاسهم التى يمكن دفع قيمتها فى العام الواحد .

وقد تشترط الجمعية مرور فترة معينة على العضوية — خمس سنوات أو أكثر — قبل أن يكون للمساهم الحق فى تقاضى ثمن اسهمه والانفصال عن الجمعية .

كما ترى جمعيات أخرى الا ترد قيمة الاسهم مهما كانت الظروف ، وعلى العضو الراغب فى ترك الجمعية أن يتصرف فى أسهمه بالبيع أو بالنزول لشخص آخر بعد الحصول على موافقة الجمعية .

هذا هو مبدأ الباب المفتوح فى الحركة التعاونية ، وهو برغم ما ادخل عليه من تطورات مازالت مكانته فى الصدارة من المبادىء التعاونية، وما زالت الجمعية المثالية هى التى يمكنها أن تلتزم النص الاول للمبدأ .

فاذا عدنا القهقرى لاكثر من الف سنة خلت ، لنناقش روح هـذا المبدأ فى الدعـوة الاسـلامية لم نجده يختلف كثيرا عنه فى الحركة التعاونية :

فها هو ذا الاسلام يفتح باب الدخول اليه على مصراعيه لكل من آمن واقتنع بدعوته ، ورغب فى اعتناقها .

لم يبق الاسلام أى فوارق يمكن ان تكون عائقا دون الدخول فيه ، فقد نظر الى الناس جميعا على أنهم (سواسية كأسنان المشط) .

أزال فوارق اللون والجنسية (لافضل لعربى على عجمى ، ولا لابيض على أسود الا بالتقوى) ، وكان بلال من اشد المقربين للرسول ، وهو عبد اسود .

أزال الفوارق الناجمة عن اختلاف توزيع الثروة والجاه ، ففتح بابه للبائسين والمستضعفين ، وهذا ابو جهل يأتى الى رسـول الله مهرولا ليسأله باستنكار :

اجئتنا يا محمد لتجعل ابن سمية الذليل ، والوليد سواء ؟ .

فيجيبه الرسـول صلى الله عليه وسلم : نعم ، فما هما الا ولدا آدم ، وآدم من تراب .

فلايكاد يصدق أبو جهل ويعود مستأنفا تساؤله :
وتجعلهم أندادا لنا وهم عبيدنا وموالينا ؟ .
فيجيبه الرسول اجابة قاطعة :
نعم ونجعلهم ائمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الارض .

كما أزال الاسلام أى تمييز لفارق السن عند اعتناقه ، فكان على ابن أبى طالب من أوائل المسلمين وهو صـبى لم يزل فى العاشرة من عمره .

وأزال فوارق الجنس، فمنح المراة الحرية التى منحها للرجل وحقوقه عند اعتناق الاسلام .

« يأيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك » الى آخر الآية الكريمة(١)

أما الشطر الآخر من المبدأ ، وهو الخاص بحرية الخروج فاننا لانفتقده فى الدين الاسلامى الذى التزم قاعدة مقدسة (لا اكراه فى الدين) :

ذلك أن الارتداد عن الدين اعتبره الاسلام جزءا من حرية العقل والضمير التى اقام الاسلام عليها دعوته ، فمن شرح الله صدره للاسلام بقى عليه وعاش فيه ، والا خرج وكفى جماعة المسلمين شره .

فعند ما أرسلت قريش وفدا على رأسه سهيل بن عمرو لمفاوضة الرسول صلى الله عليه وسلم على الصلح اشترطت قريش شرطا وافق عليه الرسول وادرجه فى نص المعاهدة ، وهذا هو نص هذا الشرط :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ،ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

وعند ما وصلت المفاوضات الى هذه النقطة قال المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

يارسول الله ، اتكتب هذا ؟ .

فأجابهم الرسول بما معناه :

نعم . أنا عبد الله ورسوله لن اخالف أمره ، ولن يضيعنى ، انه من ذهب منا اليهم فقد أبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا .

هكذا رسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوط هذا المبدأ المثالى الذى يكشف عن سماحة متناهية فى الدعوة الاسلامية .

---

(١) سورة الممتحنة . آية (١٢) .

وقد اقتضت الظروف بعد ذلك أن يدخل الاسلام تعديلا على هذا الجزء من المبدأ ، وكان مضطرا أن يفعل ذلك .

ذلك أن اليهود تآمروا فيما بينهم على أن يتظاهر فريق منهم بالدخول في الاسلام ، فيثبتوا بذلك استعدادهم لترك دينهم القديم ، ويبرءوا من تهمة التعصب له ، ثم يرتدوا بعد ذلك عن الاسلام حتى يشيع بين جماهير الذميين أن اليهود ماهجروا الدين الجديد الا لما استبان لهم من بطلانه وتفاهته .

« وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

كما واجه الاسلام طائفة أخرى من المنافقين كانوا يتظاهـــرون بالاسلام الا أن تصرفاتهم وأعمالهم كانت جميعا موجهة ضده ، ومثل هذه الفئة تكون فى خطرها اشد ممن يجاهر صراحة بعدائه للاسلام .

كل ذلك كان يقع فى وقت يواجه فيه الاســـلام أخطارا كثيرة ، وعدوانا من كل جانب ، ويجد نفسه مضطرا للدفاع عن بقائه ، لقد كانت الحرب التى يواجهها تستهدف ازالته واجتثاث جذوره من القلوب التى آمنت به .

(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة ، واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

هكذا قيد الاسلام حرية الخروج بعد أن خرجت المسألة عن كونها قضية مبدأ أو حرية شخصية ، وانما أصبحت قضية دفاع عن النفس ضد جريمة من جرائم الغدر والخيانة ، وأصبح التجاوز عنها نوعا من السذاجة والغفلة .

الفصل الثاني

نشر العلم

« انما بعثت معلما ، انما بعثت لأتمم مكـــارم الاخلاق »

(حديث شريف)

« كذلك فان التعاون ، وهو الصورة الثالثة من صور المجتمع الذى نسعى لاقامته ، لا يمكن أن يقوم الا اذا قام العلم بالتمكين له »

(جمال عبد الناصر)

ان دعوة تثق فى نفسها وتجعل هدفها العقل ، وسبيلها المنطق ، دعوة هذه طبيعتها — لابد أن تعمل على ايقاظ العقل وتقويته لتستمد منه قوتها .

من هنا اهتمت الدعوة الاسلامية بالعلم ، واهتمت الحركة التعاونية به أيضا .

وقد أوضح التعاونيون منذ وجدوا فائدة التعليم وضرورته للنهوض بحركتهم التعاونية .

فكان«روبرت أوين»صاحب نظريات التعاون الاولى كاتبا ومحاضرا، كما قام بانشاء مدرســـة فى نيولانارك تعتبر بداية للحركة التعـــاونية الانجليزية .

كذلك كان قادة التعاون فى ذلك العهد يتولون طبع الكتب والقاء المحاضرات على زملائهم فى الحركة .

وفى عام ١٨٤٩ عند ما شعر رواد « روتشديل » بأن مركز جمعيتهم المالى قد صار متينا ، بدءوا فى تنفيذ دعوتهم التعليمية ، فكونوا من بين اعضاء جمعيتهم لجنة للتعليم قامت بافتتاح مكتبة لبيع الجرائد والكتب ، كما أنشئوا قاعة للمطالعة .

ويقول وليم « روبرتسون » فى كتابه عن هؤلاء الرواد ، انهم عنوا عناية خاصة بنشر العلم بين اعضاء جمعيتهم ، وركزوا اهتمامهم فى ذلك النوع من العلم الذى يكون المواطن ، ويزيد فى معلوماته وادراكه ، ويبصره بمصلحته كفرد يشعر بقيمة العمل والتفكير لرفع مستواه مع عدم تجاهل مصلحة الجماعة .

ويضيف روبرتسون : أنه فى عام ١٨٥٣ أضـــافت الجمعية الى نظامها أن تستقطع ٢٪ من صافى الربح للاغراض التعليمية ، واستعمل هذا المبلغ لاول مرة فى توسيع مكتبة كان قد بدىء بها على نطاق ضيق، وتوالت الاعوام وازدادت المكتبة اتساعا ، وتوافرت فيها وسائل الاطلاع، وفتحت ابوابها للجمهور من الثامنة صباحا الى التاسعة مساء ، ومنذ

ذلك التاريخ والجمعيات تخصص نسبة تتراوح بين ٢٪ و ٥٪ من صافى أرباحها لاغراض التعليم .

وفى عام ١٨٧٧ يكتب التعاونى الانجليزى ابرام جرين :

« ان هؤلاء القادة كانوا يجتمعون بعد عملهم اليومى الشاق فى الحجرة الخلفية لمتجرهم للاستماع الى أخبار الاسبوع ، وتتبع ذلك بعض المناقشات التى تعتبر من أهم وسائل التثقيف .

وفى عام ١٨٤٨ استولى هؤلاء القادة على المبنى الذى كان فيه متجرهم .

وفى عام ١٨٤٩ أسست حجرة للاخبار ومكتبة ، وكان الاعضاء يمدونها بتبرعات لاتزيد على بنسين فى الاسبوع .

ثم قوى عندهم الامل بعد نجاح هذه التجربة . ولما كانت التبرعات لاتدر دخلا كافيا لمواجهة المصروفات المتزايدة للمكتبة فقد قدم الاعضاء التماسا الى الجمعية بطلب المساعدة ، وقوبل هذا الاقتراح بموافقة اغلبية الاعضاء ، بل قوبل بحماس دفعهم الى الموافقة على اعطاء المكتبة منحة مقدارها خمسة جنيهات كل ثلاثة أشهر ، وصرف مبلغ ٤٠ جنيها دفعة واحدة ، وقد تم ذلك فى أحد اجتماعاتهم الدورية » .

وعلى هذا المنوال الذى اختطته جمعية «روتشديل» سارت جمعيات اخرى كثيرة فى ذلك العهد .

وفى عام ١٨٧٠ اتخذت الجمعية العمومية للجمعية الروتشدالية قرارات للنهوض بالناحية الثقافية ، فعلاوة على ادارة المكتبة وحجرة الاخبار فى المركز الرئيسي للجمعية وفروعها ، فان الجمعية قامت بدعوة محاضرين من ذوى الكفايات الممتازة لزيارة الجمعية والقاء محاضرات فى جميع الموضوعات التى تمس حياة الاعضاء ، وقد كانت للجمعية فى ذلك الوقت قاعة خاصة للمحاضرات .

ثم وجهت تلك الجمعية اهتمامها الى تنظيم فصول دراسية . وفى عام ١٨٧٣ قررت الجمعية الاشتراك مع قسم العلوم والفنون بجنوبى كنجستون الذى كانت تدفع له المنح الدراسية .

وقد انضم للجمعية فى العام الاول لهذا المشروع واحد وثلاثون طالبا لدراسة العلوم فى هذا القسم .

اما الدراسات العملية الخاصة بمختلف الاعمال والحرف فكانت قد بدأت قبل ذلك بكثير .

ويذكر هوليووك فى كتابه (تاريخ الروتشداليين الاوائل) أنه فى الفترة التى بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٥٥ افتتحت الجمعية مدرسة للشبان مقابل بنسين فى الشهر ، وفى عام ١٨٥٥ افتتحت اللجنة التعليمية فصلا لتعليم بعض الحرف ، ويتسع هذا الفصل لثلاثين طالبا بين سن ١٢ و ٤٠ سنة ، وكانت الدروس تلقى أيام الأحد والخميس .

ويجب أن نذكر هنا أن التعليم الاولى الاجبارى لم يكن له وجود فى ذلك الوقت ، كما أن كثيرا جدا من التعاونيين كانوا يجهلون القراءة والكتابة ، ولهذا اتجهت الجمعية الى الاهتمام بهذا النوع من التعليم .

كما اتجهت الى تنظيم فصول لتدريس العلوم والفنون ، وفى علم ١٨٨٣ كان بتلك الفصول ما يقرب من ٤٠٠ طالب زاد عددهم الى ٥٠٠ طالب فى علم ١٨٨٦ .

وفى عام ١٨٨٦ و ١٨٨٧ قامت لجنة التعليم المنبثقة عن الجمعية بتنظيم دراسات فى الكيمياء والصناعة حيث انشأت احسن معامل الكيمياء بالمدينة .

وقد بدأت السلطات المحلية فى مباشرة مهمة التعليم لأفراد الشعب، ابتداء من علم ١٨٨٠ ، وعلى الرغم من ذلك استمرت الحركة التعاونية فى تلك البلاد تؤدى دورها التعليمى .

وفى خطاب ألقاه ارنولد توينبى التعاونى الانجليزى بجامعة اكسفورد عام ١٨٨٢ قال :

ان هذا العمل الذى قام به التعاونيون انما كان يهدف الى تثقيف الشعب وتبصيره بأمور الحياة ، وقد رأينا أن قادة روتشديل قد ادركوا هذه المسئولية فضلا عن تقديمهم مساعدات فنية عامة ، كما انه فضلا عما قامت به الحركة التعاونية للتعليم فان الجمعية التعاونية كانت بين الاوائل الذين نظموا محاضرات جامعة على نطاق واسع ، كما عملوا على توسيع المجال الدراسي فى الجامعات ، وقام هؤلاء القادة الاوائل باعطاء حصص دراسية بين المحاضرات ، والذى لاشك فيه أن هذه الدروس كانت نواة لانشاء أقسام التدريس بالجامعات الموجودة الآن .

وفى عام ١٨٧٩ تناول البروفيسور ستيوارت الموضوع نفسه فى خطاب ألقاه فى أثناء اجتماع للتعاونيين .

« اذا كان اعضاء جمعيتكم غير ملمين الماما تاما بالعلوم الاقتصادية والحقائق التجارية وحالة الحكم فى هذه البلاد وغيرها من البلدان ، وتاريخ التجارة والمعلومات العامة والمعلومات الخاصة الهامة التى ترمون اليها وتسعون للوصول الى معرفتها فسوف يصبح رجالكم خطرين على الحركة التعاونية ، كما يصبح مركزكم خطرا ، وهذا يؤدى الى فشل محاولاتكم . ان حركتكم حركة ديمقراطية اذا كان هناك شيء بهذا المعنى ، ونجاحها يعتمد اعتمادا كليا على حسن ادراك اعضائكم،فيجب عليكم اولا تعليم اعضائكم القواعد والمبادىء التى تسيرون عليها ، كما يجب ان يكونوا ملمين الماما تاما بالعلوم الاقتصادية وتاريخ المحاولات التى قامت قبل حركتكم ، وكذلك يجب ان يكون اعضاؤكم على درجة كبيرة من الثقافة العامة ، لان التعليم مرغوب فيه للجنس البشرى وضرورى جدا للتعاونيين » .

وقد اهتم المركز الرئيسي لاتحاد التعاونيين بمعالجة هذا الموضوع وتنظيمه ، فأعد تقريرا شاملا لهذا الغرض فى سنة ١٨٨٣ ، كما كون لجنة لشئون التعليم ، واشترك مع جامعة أكسفورد فى تنظيم محاضرات للتعاونيين .

وفى العلم المذكور أصدر المجلس القرار الهام التالى :

« على المجلس المتحد المشترك أن يعين من بين أعضائه لجنة عامله للتعليم تمد الحركة التعليمية التعاونية بما تحتاج اليه ، وعلى المجلس أن يقوم بهذا العمل فى الحال » .

واستمر ذلك المجلس فى تشجيعه للتعليم ، فكان يخصص منحا دراسية للمتفوقين من التعاونيين فى مختلف مراحل التعليم .

واستمر هذا المبدأ ينتشر بانتشار الحركة التعاونية حتى لنجده قد بلغ اقصي درجات هذا الانتشار فى وقتنا الحاضر .

ذلك أن الحركة التعاونية المعاصرة قد جعلت الاهتمام بالتعليم مبدءا من أسمى مبادئها ، وان اختلف تطبيق هذا المبدأ بين جمعية وأخرى .

فنشاهد أن بعض الجمعيات تكون لجنة خاصة لشئون التعليم أو تخصص له جزءا من أرباحها كل عام ، أو قد تنفق على النهوض به من أموالها باعتباره أحد الابواب الضرورية المستحقة للانفاق .

كما قد تتطور بعض الجمعيات لتكون اتحادا للتعليم أو فرعا تعليميا ينبثق عن ذلك الاتحاد .

وفى تقرير رفعه التعاونى « سير ملكولم دارلنج » عام ١٩٣٥ عن نواحى التعاون فى كبرى المقاطعات الهندية ، لفت فيه النظر الى ان الحركة التعاونية تصاب حتما بالفشل الذريع بدون التدريب والتعليم .

وفى انجلترا أنشأت الجمعيات التعاونية اتحادا تعاونيا يقـــوم بأعمال علمية متشعبة فى مجال البحث والتوجيه والارشاد ، كما يقوم باصدار الكتب والنشرات والمجلات والصحف ، ويقوم أيضا بادارة كلية التعاون التى تعتبر أكبر كلية من نوعها فى العالم .

وفى هولندا تمتلك الحركة التعاونية صحيفة تعاونية منتظمة تقوم بطبع وتوزيع نحو ربع مليون نسخة .

وتتولى الحركات التعاونية اصدار صحف أخرى ناجحة فى كثير من بلاد أوربا ، كالسويد ، وايطاليا ، وفنلدة . وفى هذه الأخيرة اقتصر نشاط الجمعية التعاونية للاتجار بالجملة فى العام الاول من انشـــــائها على الاغراض التعليمية .

وفى بلجيكا تجمع الجمعية التعاونية العامة بين العناية بالناحية الثقافية والعناية بالناحية الاقتصادية .

وفى الدانمارك تم انشاء مدرستين تعاونيتين .

وفى الاقليم المصرى دار التعاون للطباعة والنشر تقوم فيها هذه الدار باصدار كتب ونشرات تخدم الحركة الثقافية والتعاونية ، كما تقوم باصدار جريدة اسبوعية منتظمة .

وقد ساهمت الجمعيات والمنشآت التعاونية فى انشاء (المركز الثقافى التعاونى) بمدينة الاسكندرية .

كما قامت جمعيات تعاونية كثيرة بانشاء مكتبات بها ، ويقوم كثير من الاتحادات التعاونية بالاقاليم باصدار مطبوعات ونشرات دورية .

وهكذا يتضح لنا مدى الاهتمام الواسع الذى يلاقيه العلم من الحركة التعاونية .

فأى موقف اتخذه الاسلام من هذا المبدأ ؟

« اقرأ »

تلك كانت أول كلمة سماوية يهبط بها الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أروع دعوة الى العلم والثقافة .

لقد دعا الاسلام بإصرار الى طلب العلم ، العلم اينما وجد ، وبأى سبيل (خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت) ، (اطلبوا العلم ولو فى الصين) ، (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم) .

وجعل الاسلام العلم هدفا للمؤمنين (الحكمة ضالة المؤمن) ورفع الله ورسوله من مكانة العلم وطالبيه (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) « قرآن كريم » .

و (يرجح مداد العلماء دماء الشهداء يوم القيامة) (حديث شريف)

وينقله الرسول صلى الله عليه وسلم من شيء مرغوب فيه الى مرتبة الفرض (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) ولا يكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم برفعه الى هذا الحد ، بل يجعله فى مكان الصدارة من الفرائض ، كما جاء فى بعض الروايات (درس علم خير من عبادة ستين سنة) .

ويفرق سبحانه وتعالى بين المتعلم وغير المتعلم فى تساؤل حكيم . (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) .

ثم يشير سبحانه وتعالى الى مكانة هؤلاء الذين يعلمون ، ويقرن شهادتهم بوجود الخالق بشهادة الملائكة : (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) .

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم اى جزاء ينتظر الساعين الى العلم فيقرن طريقهم بطريق الجنة : (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة) .

ويذكر عليه الصلاة والسلام فوائد العلم فى دعوته له (تعلموا العلم ، فيه يعرف الحلال من الحرام ، وهو منار الجنة ، وهو الانيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والمصبر على الضراء ، والوزير عند الاخلاء والقريب عند الغرباء) .

ثم نرتفع مع الدعوة الاسلامية درجات فى تمجيدها للعلم والعلماء عند ما تعتبر أن الايمان يكون ناقصا اذا لم يصدر عن علم وادراك(وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) ، (انما يخشي الله من عباده العلماء) .

ومن الخطأ أن يظن ظان أن الاسلام لا يدعو الى تعلم العلوم الكونية

والاغتراف من مناهل العلوم العصرية ، فلقد نبه الى النظر فى كل ما خلق الله من شيء فى السماء والارض ، وفى الانسان نفسه ، والجماعات البشرية . وموضوعات العلوم المختلفة لا تخرج عن هذه الدائرة .

يضاف الى هذا أن الاسلام جعل مناط الايمان فى مستقبل هذا العالم الى ازدياد العلم بهذه الحقائق . (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .)

كل هذا دفع أحد مفكرى الغرب الى القول بأنه (اذا كان فى الأرض أديان تعادى العلوم فان الاسلام على العكس لايقوى ولا يزدهر الا بانتشار العلوم وتقدمها ، اذ أن بينه وبينها رابطة أكيدة ، فلا يمكن نسبة الانحطاط الحالى بين المسلمين الى دينهم ، لأنه كان فيما مضي السبب الوحيد فى رقيهم وعظمتهم) .

ويقول المستشرق درابر فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

(لقد كان تفوق المسلمين فى العلوم ناشئا من الاسلوب الذى توخوه فى مباحثهم ، هذا الاسلوب الذى أوجب لهم الترقى الباهر فى الهندسة ، وحساب المثلثات ، واكتشاف علم الجبر) .

ولم يقف الاسلام عند حد تشجيع الاقبال على تعلم العلوم الحديثة النافعة ، بل اعتبر ان كل علم أو فن تحتاج اليه الامة فى حياتها يعتبر فرض كفاية يجب على طائفة منها أن تتزود منه وتقوم بتحصيله والا وقعت الامة كلها فى الاثم .

وجميع العلوم الحديثة والكونية من طب ، وفلك ، وهندسة ، وصيدلة ، وطبيعة ، وكيمياء وغيرها يعتبر تحصيلها من فروض الكفاية لحاجة الامة اليها .

وبينما يقول مدير الحلف التعاونى العالمى : (قيل عن التعاون انه حركة اقتصادية وسيلتها الاعمال التعليمية ، ويستقيم المعنى بالدرجة نفسها من الصحة اذا قلنا : انه حركة تعليمية وسيلتها الاعمال الاقتصادية ، وبينما يقول احد اقطاب التعاون هذا الكلام ، نجد أن الكثيرين من الصحابة قد طبقوه بصورة عملية فى الدعوة الاسلامية ، فقد كان أغلبهم تجارا ، وبذلك جمعوا فى اطار الاسلام بين العلم والتجارة ، واستطاعوا أن يجعلوا المال أداة لنشر الفكر .

فأبو بكر كان بزازا ، وعمر كان تاجرا ، وسعد بن أبى وقاص كان يبرى النبل ، وعثمان بن عفان كان بزازا ، وعمرو بن العاص كان جزارا .

والرسول نفسه صلى الله عليه وسلم اشتغل بالتجارة فى وقت ما .

وعندما بدأ أبو حنيفة يمتهن التجارة استعان بالعلم ، فدرس فنون التجارة وأصولها على يد احد اساتذتها ، وقال مرة مخاطبا أحد التجار .

(أراك تتجر ، التجارة اذا كانت من غير علم دخل فيها فساد كبير . فلم لا تتعلم ولا تكتب ؟) .

وبعد أن هاجر المسلمون الى المدينة واستقروا فيها ثم اشتعلت نيران الحرب بين المسلمين وأهل الشرك ، وتبين للرسول صلى الله عليه وسلم أن اهل المدينة لايكتبون بعكس أهل مكة ، دفعه ذلك الى القيام بأول مشروع لمكافحة الامية ، فجعل على كل أسير من أهل مكة ليس له فداء أن يقوم بتعليم عشرة من غلمان المدينة حتى اذا حذقوا كان ذلك فداءه . . .

ويستمر العلم محتلا مكانته العالية فى قلوب حكام المسلمين فى عصور الاسلام الاولى حتى نستمع الى عالم ضرير هو أبو معاوية يقول :

(اكلت مع الرشيد يوما ما ، فصب على يدى الماء رجل ، فقال لى يا ابا معاوية ، أتدرى من صب الماء على يديك ؟ فقلت : لا ، يا أمير المؤمنين . قال : أنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ولم تفعل هذا ؟ قال : اجلالا للعلم) .

هكذا فتح الاسلام أبوابه واسعة أمام العلم الذى جعلته الحركة التعاونية لها مبدءا فيما بعد .

والآن يمكننا أن نحكم بأن « هـ . الدن » ممثل السويد فى المؤتمر التعاونى السادس عشر للحلف التعاونى لم يذهب بعيدا عن نصوص الاسلام حينما وقف يعلن فى المؤتمر المذكور :

(انه اذا أتيحت الفرصة لبدء حركتنا من جديد وخيرنا بين أمرين كلاهما ممكن : اما البدء بأعضاء مستنيرين وبلا رأس مال ، أو البدء برأس مال كبير وأعضاء على غير علم ، فان تجربتنا تملى علينا ان نختار أول الطريقين) .

الفصل الثالث

الديموقراطية في الإدارة

(فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)

« قرآن كريم »

ان التاريخ يرينا ان كل دعوة صالحة تهدف الى خير البشر انما جاءت على أنقاض دعوة أخرى فاسدةكبلت الواقعين تحت سيطرتها بقيود قد تزيد أو تقل ، لكن لابد أن يكون ضمن هذه القيود قيد مشترك هو قيد الاستبداد .

وقد يختلف هذا القيد ايضا بين دعوة وأخرى :

فعندما ظهر الاسلام كان المستبد بعقول النـــاس المسيطر عليهـا مجموعة من الأساطير والمعتقدات البالية .

وعندما لجأ رولد روتشديل الى التعاون ودعا اليه كان الذى يقوم بدور المستبد فى كل مكان مجموعة من الاقطاعيين وأصحاب الاعمال .

وفيما قبل روتشديل نجد الكثير من المستبد بهم يحاولون أن يزرعوا بذرة التعاون باعتباره منقذا لهم ، آملين ان تنبت هذه البذرة حتى تصير فى يوم ما شجرة يستظلون بظلها .

ففى سنة ١٧٩٥ رفعت مطاحن هال فى يوركشاير أجور الطحن الى حد خيالى بعد أن احتكرت ملكيتها مجموعة من الاقطاعيين . وعجز الفقراء عن طحن غلالهم ، ومن ثم عجزوا عن الحصول على الخبز ؛ لانهم لا يملكون الاجر غير العادل الذى يطلب منهم .

ولم يجد هؤلاء غير التعاون حلا لمشـــــكلتهم ؛ فلجئوا اليه حيث اجتمعوا وتناقشوا واتفقوا على انشاء مطحن تعاونى يســـــاهمون فى تكاليف انشائه جميعا .

ثم ظهر داعية تعاونى آخر هو روبرت أوين ، وكان الفضــــل فى التجائه الى التعاون هو وجود الاوضاع الاستبدادية المنكرة التى كان يحافظ على بقائها الاقطاعيون وأصحاب الاعمال .

فقد كان هؤلاء يجبرون العامل فى مزرعتهم أو مصنعهم على العمل مدة تصل الى ثمانى عشرة ساعة فى اليوم الواحد ؛ وكان من بين هؤلاء العمال صبية لم يبلغوا سن العاشرة ، اذ أنهم كانوا يفضــــلون اختيــار

عمالهم من الاطفال ابتداء من سن السابعة نظرا لرخص أجورهم ، وكانوا يعدون لهم غرفا ملحقة بالمصانع لينانموا فيها جماعات مختلطين بمن هم مرضي .

ومن كل هذه الاوضاع كان هؤلاء الاقطاعيون يستمدون ثراءهم !!

أثار ذلك الاستبداد (روبرت أوين) فهب لمقاومته مطالبا الحكومة أولا بالعمل على تحسين حال العمال فى انجلترا ، وذلك بأن تسن القوانين لخفض ساعات العمل اليومية الى عشر ساعات ونصف الساعة . ولمنع تشغيل الصبية الذين تقل اعمارهم عن العاشرة ، وجعل التعليم الاولى الزاميا للصغار .

غير أن الحكومة الانجليزية — وكانت هى الأخرى مجموعة من المستبدين — أهملت مطالبه .

فلم يجد « أوين » أمامه سبيلا غير التعاون ، فاستقر رأيه على انشاء جمعيات تعاونية زراعية وصناعية تكون مصادر الثروة فيها ملكا شائعا بين الافراد المشتركين فيها .

ومن هنا لقب هذا الرجل بلقب « أبو التعاون » .

وهكذا كان للاستبداد الفضل فى خلق مبدا ودعوة ، ومن هنا ايضا كان لابد للحركة التعاونية أن تجعل من اهم مبادئها الاخوة والمساواة فى الادارة أو ما نسميه بمبدأ (الادارة الديمقراطية) .

وقد ورد فى المادة الثانية من قانون الجمعية التعاونية الأولى :

(ان الجمعية العمومية تنتخب لادارة الجمعية مجلسا يتألف من رئيس ، وسكرتير ، وأمين صندوق ، وأعضاء آخرين) .

وفى عام ١٨٤٥ اضافت الجمعية الى قانونها :

(ان الاعضاء يحضرون الجمعيات العمومية بأنفسهم ، ويكون لهم الحق فى مناقشة جدول أعمالها ، وللفرد الواحد صوت واحد ، ولا يكون لأى منهم أكثر من هذا العدد فى اتخاذ القرارات ، فاذا تساوت الاصوات عند أخذ الرأى كان صوت رئيس الجمعية أو من جلس فى مكانه لغيابه مرجحا ، وتدار المناقشات جميعا بأغلبية الاصوات فى كل المسائل ما عدا حل الجمعية فله ترتيب ونصاب آخر يحدد بقانون خاص) .

هذا هو مكان الادارة الديمقراطية فى الحركة التعاونية ، فأى مكان لهذا المبدأ فى الدعوة الاسلامية ؟!

« وشاورهم فى الأمر » .

هكذا أمر الله تعالى نبيه الذى كان أمينا فى تنفيذ أمر الله ، حريصا على هذا التنفيذ .

والقرآن الكريم عندما وضع أصولا وقواعد عامة لتنظيم شـئون الامة انما ترك التفصيلات ، فاتحا بذلك الباب على مصراعيه أمام حرية الفكر والتشاور للوصول الى اصوب الآراء :

ففى غزوة بدر اختار الرسول صلى الله عليه وسلم موقعا للحرب ينزل فيه جيش المسلمين فلما تيقن الحباب بن المنذر أن اختيار هذا الموقع لم يتم بناء على وحى من الله ، وانما جاء هذا الاختيار اجتهادا فى قواعد الحرب والمكيدة — أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم بموقع آخر فقبل الرسول رأيه ، وترك الموقع الذى اختاره الى الموقع الذى اشار به الحباب .

وعندما أعلن معاذ بن جبل انه سوف يجتهد برايه فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة — وكان ذلك فى اثناء ايفاد الرسـول عليه الصلاة والسلام له الى اليمن — ويسمعه الرسول يعلن ذلك فانه لايكتم اعجابه به بل يقول :

(الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضي رسول الله) .

وهاهو ذا اعرابى يساق الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استبدت به رعدة لعلمه بجلال الشخصية التى هو مسوق اليها ، فيخفف الرسول عليه السلام من روعه قائلا ما معناه :

« هون عليك ، انى لست بملك ، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

ويعلم الرسول صلى الله عليه وسلم الديمقراطية أثنين من خلفاء المستقبل ، فيلقى عليهما درسا يتألف من جملة واحدة عندما يقول مخاطبا ابا بكر وعمر :

(لو اتفقتما على أمر ماخالفتكما) .

وهذه القاعدة تمثل النص الذى اخذته الحـركة التعاونية عندما جعلت نظام التصويت فيها لا يمنح العضو الواحد الحق فى أكثر من صوت واحد أيا كان مركزه أو مقدار مساهمته .

وينهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الكبر وهو قرين الاستبداد (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه حبة من كبر) .

ثم ينذر عليه الصلاة والسلام المستبدين بأنهم سيكونون فى طليعة من يدخل النار : (عرض على أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط ..) الى آخر الحديث وهو وارد فى موضع آخر من هذا البحث .

ويؤيد الحديث القدسي هذا المعنى نفسه : (الكبرياء ردائى ، والعزة ازارى ، فمن نازعنى شيئا منهما عذبته) .

وتتجلى ديمقراطية الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحدق المشركون واليهود بالمدينة محاصرين فيها المسلمين ، ذلك الحصار الذى وصفه سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : (اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) .

وفى هذه الأيام العصيبة أراد النبى صلى الله عليه وسلم ان يستعمل الحيلة لفك الحصار باغراء بعض القبائل بنصيب من ثمار يثرب ، فبعث صلى الله عليه وسلم الى قائدى غطفان — عيينة بن حصن ، والحارث ابن عوف ، وتفاوض الجانبان على أساس أن يأخذ القائدان ثلث عمارة المدينة ويرجعا بمن معهما ، وجرى الاتفاق والصلح على ذلك ، وكتب الطرفان معاهدة بما اتفقا عليه .

وقبل توقيع المعاهدة استشار الرسول كلا من سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فقالا له صلى الله عليه وسلم :

يارسول الله : أشيء أمرك الله به لابد لنا من اتباعه ، أم أمر تحبه فنصنعه ، أم شيء تصنعه لنا ؟

قال صلى الله عليه وسلم :

بلى ، شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك الا أنى قد رأيت الحرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم .

فقال له سعد بن معاذ :

يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الاصنام ، لانعبد الله ولا نعرفه ولا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة ،

أفحين أكرمنا الله بالاســـــلام واعزنا بك نعطيهم اموالنا ؟ مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم ضاربا المثل فى الديمقراطية الحقة .

(أنت وذاك) .

فتناول سعد الصحيفة ومحا ما فيها من الكتابة ثم قال :

ليجهدوا علينا .

وقبيل غزوة أحد عقد المسلمون اجتماعا بحضور الرسول صلى الله عليه وسلم ليتشاوروا فى وضع خطة الحرب ، وظهر من المناقشات أن للمجتمعين رأيين :

الأول يشير باستدراج جيش قريش الى المدينة ومحاصرته بها حتى يسهل القضاء عليه .

والرأى الآخر ينادى بالخروج لملاقاة الاعــداء قبل وصـــولهم وقطع الطريق عليهم بمبادرتهم بالهجوم .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام من انصار الرأى الاول ، وأعلن عليه السلام موقفه للناس وعرض عليهم الموافقة عليه .

ولكن الشباب المتحمسين وقفوا فى صـــف الرأى الاخــير ، وكان الشباب هم الذين يكونون الاغلبية فى ذلك الاجتماع .

وخضع الرسول لرأى الاغلبية ، وقام صــــلى الله عليه وسلم الى منزله فارتدى لأمته وعاد الى القوم مستعدا للحرب .

ولما رآه المسلمون قد لبس سلاحه ، وأحسوا أنه انمــا فعل ذلك بعد أن غيروا رغبته وأنزلوه على رأيهم شعروا بالندم ، واستكثروا أن يشيروا عليه صلى الله عليه وسلم والوحى يأتيه .

فقاموا اليه معتذرين :

يا رسول الله اصنع ماشئت .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرجع برغم ذلك عن التزام الرأى الذى أقرته الأغلبية واستقرت عليه فى اجتماعها ، فيقول لهم :

لاينبغى لنبى ان يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل .

ويوم حنين ، عاد صلى الله عليه وسلم ومعه من هوازن سبايا كثيرة ، فلحق به وفد منهم بعد أن أسلموا وطلبوا منه عليه السلام أن يرد عليهم سباياهم من أموال وأنفس واخذوا يتوسلون اليه فى سبيل ذلك بالصلات القديمة التى كانت تربط بينه وبينهم فيقول قائلهم :

يا رسول الله ، ان فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك .

فلا يرى الرسول صلى الله عليه وسلم أن من حقه أن يتصرف الا فيما يخصه فقط .

فيقول لهم :

(أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، واذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا : انا نستشفع برسول الله الى المسلمين فى أبنائنا ونسائنا) .

وفى المسجد فعلوا ما نصحهم الرسول صلى الله عليه وسلم بفعله ، فنهض صلى الله عليه وسلم معلنا للناس ان ما كان له ولبنى عبد المطلب فهو لهم ، فقام المهاجرون فأعلنوا : ان ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويحرص عليه الصلاة والسلام بأن تظل الديمقراطية سائدة فى الأمة الاسلامية من بعده ، فينادى بالتدقيق فى اختيار الاصلح لتولى أمور المسلمين (أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل مما استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله ، وغش جماعة المسلمين) .

ويحمل الرسول صلى الله عليه وسلم مسئولية الادارة لكل من يتولاها فى أمور الحياة كافة ، مرتبا اياها فى تقسيم شامل : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامير راع على الناس وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على اهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، الا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

هذا هو الرسول محمد الذى قالت عنه عائشة رضي الله عنها :

(ما رأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله) .

وعندما انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى لم يعين خلفا له ، مفضلا ان يترك ذلك لرأى المسلمين .

وقد طبق المسـلمون المبادىء المحمدية فاجتمعت جمعيتهم لتناقش هذا الأمر ولترى الاصلح لتولى شئونها فتختاره ، واستقر رأيهم على أن أجدر من يشـغل مكان الرسـول صلى الله عليه وسـلم هو أبو بكر فبايعوه .

ولم يخرج عن اجماع المسلمين فى ذلك الوقت سوى نفر قليل مثل « ابو ذر الغفارى » « والزبير بن العوام » « وخالد بن سعيد » ، فقد كان هؤلاء يرون أن عليا بن أبى طالب أحق بالخلافة .

واجتمع هؤلاء فى دار فاطمة التى كانت تقرهم على رأيهـم ، وظلوا مطرقين الى أن ارتفع صوت المؤذن معلنـا : الله اكبر فرفع على رأسه والتفت الى فاطمة قائلا :

أتحبين أن يزول هذا النداء من الوجود ؟

فأجابته فاطمة : لا

فقال على : اذن ، سأبايع أبا بكر .

وانطلقوا جميعا فبايعوا أبا بكر .

وهكذا كان خروجهم الأول عن اجماع المسـلمين معبرا عن مبدأ الديمقراطية فى الاسلام .

وعندما تولى أبو بكر الخلافة كان أول ما فعله أن وقف ليخطب فى المسلمين مؤكدا مبدأ الديمقراطية : (أما بعد فانى قد وليت عليكم ولست بخـيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينـونى ، وان رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصـيته فلا طاعة لى عليكم) .

وحينما يناديه أحد أفراد المسـلمين بلقب (خليفة الله) يقـاطعه أبو بكر بقوله :

لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله .

وفى أثناء خلافته حدث أن عمر كان يتعهد بالرعاية عجوزا كبيرة عمياء تقطن فى ضاحية من ضواحى المدينة ، فكان عمر يذهب اليها تحت ستار الليل ليسقى لها ويقضي حوائجها ويقوم بأمرها .

ثم حدث أنه كان اذا جاءها وجد غيره قد سبقه الى القيام بشئونها واصلاح ما تريد ، فحرص غير مرة على التبكير كى لا يسبقه أحد ، لكنه

كان فى كل مرة يجد غيره أسبق اليها منه ، فصمم ذات مرة على الاختفاء فى موقع يشرف على منزل العجوز ليرى هذا المحسن المجهول ، فاذا به يفاجأ بأنه الخليفة أبو بكر .

وعندما يتولى عمر بن الخطاب خلافة المسلمين تأتى توليته أيضا طبقا لمبدأ الديمقراطية فى الادارة ، ثم يعلن هو الآخر رأيه فى هذا المبدأ فور توليه شئون المسلمين : (ان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم ، وانى وليت عليكم ولست بخيركم) .

وتكمل الصورة الرائعة للديمقراطية عند ما ينهض واحد من عامة المسلمين ليقول فى وجه عمر :

والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

فيكون جواب عمر :

الحمد لله الذى جعل فى هـذه الأمة من لو رأى فى اعوجاجا لقومه بسيفه .

ويناشد عمر المسلمين مساعدته فى تطبيق هذا المبدأ : (اتقوا الله واعينونى على نفسي بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم) .

وتنطق كل تصرفات عمر الادارية بتطبيق هذا المبدأ ، فها هو ذا يصعد الى المنبر عندما يرى مغالاة الناس فى المهور ليقول :

لا تزيدوا فى مهور النساء عن أربعين أوقية فمن زاد اوقية جعلت الزيادة فى بيت المال .

وبعد نزوله من فوق المنبر ، وقفت امراة من قريش لتبدى رأيها فى قول الخليفة قائلة : ليس ذلك اليك يا عمر .

فيفتح عمر صدره للمناقشة ويقول لها : ولم ؟

فتجيبه المرأة المسلمة :

لأن الله تعالى يقول : (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) .

فيعود عمر مستغفرا .

اللهم عفوا ، كل الناس أفقى من عمر ، أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ثم يعود الى المنبر فيصعده مرة أخرى ليعلن للمسلمين :

كنت نهيتكم أن تزيدوا فى صدقات النساء على ٤٠٠ درهم ، فمن شاء ان يعطى من ماله ما أحب فله ذلك .

ومن أقواله رضي الله عنه :

(أحب الناس الى من رفع الى عيوبى) .

ولم يقتصر الأمر على أبى بكر وعمر ، بل كان لمن تبعهم من الخلفاء أمثله سامية فى الالتزام بهذا المبدأ ، وهكذا طبقت الدعوة الاسلامية مبدأ الديمقراطية فى الادارة قولا وعملا .

الفصل الرابع

العدالة

(من ولى أمـــــرا من أمتى قلت أو كثرت فلم يـعدل فيهم كبه الله على وجهه فى النار) .

((حديث شريف))

والعدالة كما يقول التعاونيون هى القلب القوى النابض فى جسم الديمقراطية التعاونية السليمة .

والعدالة مرتبطة ارتباطا وثيقا بكل طريق اتخـذه التعاون لنفسه مبدأ ، ولابد أن تسود العدالة كل مجال يمكن ان تتحرك فيه الجمعية .

فالعدالة تلزم الجمعية عند تأسيسها والاشتراك فيها عدم التمييز بين عضو وآخر مهما كان قدره ومهما بلغت قيمة اسهمه ، فلكل عضو صوت واحد فى جمعياتها العمومية ، وفى اجتماعات مجلس الادارة .

ولكل عضو الحق فى أن يرشح نفسه للاشتراك فى مجلس ادارة الجمعية التعاونية .

وهكذا ترتبط العدالة بمبدأ الديمقراطية فى الادارة .

والعدالة ــ كذلك ــ تظهر فى أمانة الجمعية فى تعاملهـــا مع الاعضاء وغيرهم ، وفى التزامها بتسليم السلع الجيدة غير المغشوشة ، والتعامل بالمقاييس والموازين الصحيحة .

والعدالة تقتضي أن ترد الجمعية الى العضو ما حصلته منه فى شكل ارباح أو اضافات ، وهذا ما يسمى بالعائد ، وربما لاتحصل الجمعية من العضو على أرباح أصلا .

والعدالة تتطلب مكافأة العناصر التى تساهم فى نشـــاط الجمعية واهمها رأس المال والعمل .

ولما كان رأس المال فى الجمعية التعاونية يعتبر خادما لا ســيدا فقد جعلت له الحركة التعاونية أجرا ، وهو ما يسمى بالفائدة على رأس المال .

اما العمل ــ وهو العنصر الثانى الذى يساهم فى خلق نشـــاط الجمعية التعاونية ــ فلابد أن تحترمه الجمعية بالمحافظة على حقوق عمالها وموظفيها ومنحهم ما يستحقونه من أجور ومرتبات ومكافآت،وكذلك باعطائهم حقوقهم القانونية فيما يتعلق بالراحة وعدد ساعات العمل .

وكما رأينا كانت العدالة دافعا لروبرت أوين على اعتناق فكرة التعاون حتى يصير أبا له ، فاندفع الى اعتناق هذه الفكرة عند ما صدمه أن يرى أصحاب الاعمال وقد سلبوا عمالهم العدالة ، فرفعوا ساعات العمل حتى بلغت ثمانى عشرة ساعة وتنافسوا فى استخدام الصبية من سن السابعة ، وحرموهم الغذاء والمسكن الصحى .

وفى المانيا كان الفضل فى نشأة التعاون الزراعى بها يرجع الى « فردريك رايفايزن » فان الدافع الذى دفع أوين الى اعتناق فكرة التعاون كان هو الذى دفع رايفايزن ، فقد شاهد الظلم المجحف الواقع على المزارعين من طبقة المرابين الذى يتمثل فى قروض تقدم لهم بالربا الفاحش ، الذى كان كثيرا مايؤدى الى خراب بيوتهملعجزهم عن الدفع .

كما جعلت الحركة التعاونية من مبدأ العدالة رباطا يجمع بين كل مبادئها ، كذلك كان الاسلام أسبق الى جعل العدالة مبدأ عاما تصطبغ به كل احكامه ومبادئه .

فالاسلام فى نظرته للبشرية قد اعتبرها كلها فى الاصل عنصرا واحدا وامة واحدة :

« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

« وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا »

والاسلام يدعو المؤمنين جميعا الى اعتناق العدالة وتطبيقها فيما بينهم : (لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه) .

ويبين الرسول صلوات الله عليه وسلامه : اى عقوبة رهيبة تنتظر الظالمين ، فيورد فى أحاديثه ضروبا من استبداد هؤلاء الظالمين وما ينتظرهم من جزاء ، وهذا يدلنا على مدى اهتمام الاسلام باقامة العدالة ومحاربة الظلم بين الناس : يقول صلى الله عليه وسلم :

(من ولاه الله شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة) .

(ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش رعيته الا حرم الله تعالى عليه الجنة) .

(من ولى عشرة فحكم بينهم بما احبوا ، أو بما كرهوا جيء به مغلولة يده ، فان عدل ، ولم يرتش ، ولم يحف فك الله عنه ، وان حكم بغير

ما أنزل الله وارتشي وحابى شدت يساره الى يمينه ، ثم رمى به فى جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة عام) .

وعند ما ارتكبت امرأة من أشراف بنى مخزوم جريمة السرقة ، وأرادت قريش أن تعفيها من العقوبة تساءلوا بينهم : من يكلم فيها رسول الله ؟ وأجاب أحدهم : ومن يجترىء عليه الا أسامة حبيب رسول الله . ؟

وذهب أسامة ليبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة قريش ، ولكن الرسول يرد على رجائه قائلا : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟) ثم قام صلى الله عليه وسلم فخطب الناس قائلا :

(أيها الناس ، انما ضل من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف فيهم اقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) .

وفى أثناء موقعة بدر ، حدث أن قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل صفوف المسلمين ، وكان فى يده قدح ، فمر بسواد بن غزيه وكان خارجا عن الصف ، فضرب صلى الله عليه وسلم على بطنه بالقدح قائلا : استو ياسواد .

فقال سواد : يارسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل.

فكشف له صلى الله عليه وسلم عن بطنه قائلا له : فأقدنى واقتص منى

وبعد أن يضرب صلى الله عليه وسلم هذا المثل الفذ فى تطبيق العدالة يعانقه سواد ويقبل بطنه قائلا : يارسول الله أردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك .

وتتجلى عدالة الرسول عليه الصلاة والسلام فى حسن معاملته لهم وبعده عن الغبن عند دخوله المدينة بعد سيطرته عليها ، فقد قرر لهم حرية الاعتقاد فى بيانه : (لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم أنفسهم) .

ومن خطبة الوداع قوله صلى الله عليه وسلم :

(أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم اخ للمسلم ، والمسلمون اخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما اعطاه من طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم) .

ويقدر نفر من اليهود عدالته صلى الله عليه وسلم فيقوم واحد منهم ليحارب بجانبه يوم أحد ، ذلكم هو مخيريق الذى أخذ يقاتل فى صفوف المسلمين حتى قتل ، فقال رسول الله : « مخيريق خير يهودى ».

كما تجد عدالته صلى الله عليه وسلم التقدير اللائق بها من النصارى فيلجأ اليه وفد من نصارى نجران طالبين منه أن يرسل معهم من المسلمين من يستطيع أن يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من أمور دنياهم وأموالهم ، فيوفد الرسول معهم أبا عبيدة بن الجراح ، بعد أن يوصيه أن اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه .

وكان لأسرى الحرب أيضا نصيب من عدالته صلى الله عليه وسلم. ذلك أنه عند ما عاد منتصرا من موقعة بدر ، فرق الاسارى بين أصحابه بعد أن لقنهم درسا فى ضرورة تطبيق العدالة فى معاملتهم بقوله:استوصوا بالاسارى خيرا .

وحينما استجار زوج زينب — وهو مشرك — بها فأجارته ، بعد أن فرق الاسلام بينهما ، نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي ابنته اى بنيه : اكرمى مثواه ، ولا يخلصن اليك ، فانك لاتحلين له .

وتتجلى عدالة الرسول المالية يوم حنين ، فقد تزاحم عليه المسلمون بعد النصر ، كل يتعجل الحصول على نصيبه من الغنائم ، حتى ألجئوه صلى الله عليه وسلم الى شجرة جذبت عنه رداءه . فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : ردوا على ردائى أيها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته عليكم ، ثم ما الفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا .

ثم اخذ صلى الله عليه وسلم من سنام بعير شـــعرة ورفعها بين أصبعيه قائلا :

(ايها الناس : والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة الا الخمس ، والخمس مردود عليكم) .

ويأتى عمر بن الخطاب ليضرب لنا هو الآخر مثلا من خلافته العادلة عند ما جاءته برود من اليمن ففرقها على المسلمين فخص كل رجل من المسلمين برد واحد ، وكان نصيب عمر كنصيب واحد من المسلمين .

وفصل عمر برده ولبسه وصـــعد المنبر يوما ، فتكلم آمرا الناس بالجهاد الا ان واحدا من جمهور المسلمين قام مقاطعا اياه بقوله :

لا سمع ولا طاعة .

فسأله عمر : ولم ذلك ؟

فأجابه الرجل : لانك استأثرت علينا .

فعاد عمر يسأل الرجل :

وبأى شيء استأثرت ؟

قال الرجل : ان الابراد اليمنية لما فرقتها حصل كل واحد من المسلمين على برد منها ، وكذلك حصلت أنت ، والبرد الواحد لايكفيك ثوبا ، ونراك قد فصلته قميصا تاما ، وأنت رجل طويل ، فلو لم تكن قد أخذت أكثر منه ماجاءك منه قميص .

فالتفت عمر بن الخطاب الى ابنه عبد الله وقال له :

يا عبد الله : أجبه عن كلامه .

فقام عبد الله بن عمر وقال :

ان امير المؤمنين لما اراد تفصيل برده لم يكفه ، فناولته من بردى ما تممه به .

فقال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

ولعل فى حادثة ابن عمرو بن العاص المعـــروفة بحادثة (ابن الاكرمين) مظهرا آخر من مظاهر عدالة عمر .

وكان عثمان بن عفان اذا قام للوضوء فى الليل تولى هذه العملية بنفسه ، فلما أشار عليه اصحابه ان يستعين ببعض خدمه فى ذلك أجابهم بقوله : لا ، الليل لهم يستريحون فيه .

وعند ما جلس الخليفة المأمون يوما ليفصل فى قضايا الناس أتاه رجل من عامة المسلمين ليشكوه الى نفسه ، مدعيا أن وكيله قد اشترى منه جواهر لم يدفع ثمنها .

فقبل المأمون الخصومة ثم ارسل فى طلب القاضي ليفصـــل بينهما .

ويأبى القاضي أن ينظر فى القضية وهو فى قصر الخليفة ، الا اذا سمح له بجعل قصره مجلسا لنظر جميع القضايا المعروضة فى ذلك اليوم قبل قضية الخليفة ، فسمح له المأمون بذلك .

وعند ما جاء دور الخليفة وقف بجوار خصمه ولم يجلس الا بعد أن أذن القاضي لهما معا بالجلوس .

وبعد أن صدر الحكم فى القضية لمصلحة الخليفة ، قام المأمون (الخليفة) فمنح الرجل ثلاثين ألف درهم قائلا له :

انى أهب لك هذا المبلغ خشية أن يظن الناس انى ظلمتك ، وانتصرت عليك بقوتى .

وفى أثناء موقعة « حنين » فقد على بن أبى طالب درعا له ، وعند عودته الى الكوفة شاهد الدرع على يد رجل يهودى ، فطلبها منه ، فأبى اليهودى ، مدعيا أنها ملكه ، فصحبه على بن أبى طالب الى القاضي ، الذى أطلع على قضيتهما ثم طلب من كل منهما اثبات ملكيته للدرع .

فقال على : الدرع درعى لم أبع ولم أهب .

وقال اليهودى : الدرع درعى وفى يدى .

فتوجه القاضي مخاطبا عليا : ألك بينة يا أمير المؤمنين ؟

فأجابه على : نعم : قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعى .
فقال له القاضي : ان شهادة الابن لاتجوز للأب .

فلم يتمالك اليهودى نفسه ازاء صورة رائعة كهذه من صور العدالة فسلم أمير المؤمنين الدرع ، وأعلن اسلامه .

هكذا كانت أخلاق رجال صدر الاسلام ومعاملتهم : عدالة مطلقة طبقوها ، تلبية لاحكام صريحة قاطعة من دينهم .

الفصل الخامس

العائد

« خير الناس أنفعهم للناس »
« حديث شريف »

« الفرد للمجموع ، والمجموع للفرد »
« الشعار العالمي للتعاون »



العائد فى الجمعيات التعاونية جزء من الربح الناتج عن التعامل يرد الى المتعاملين الذين تسببوا فى ايجاد هذا الربح بنسبة معاملاتهم .

وقد يرد هذا الربح كله أو جزء منه ، وقد يرد فى نهاية العام ، او يرد معجلا فى أثناء العام فى صورة تخفيض لأسعار السلع أو تحسين فى نوعها ووزنها اذا قورنت بمثيلتها فى الاسواق غير التعاونية .

وتقدر المبالغ التى ردت الى المتعاملين فى انجلترا على هيئة عائد خلال الخمسين سنة الماضية بمبلغ ثلاثة بلايين من الجنيهات ، وذلك يوضح مدى أهمية هذا المبدأ ، ذلك بأن هذه المبالغ تعتبر وفرا للمتعاملين تعود الى جيوبهم فى النهاية لترفع مرة أخرى فى قوتهم الشرائية .

والمفروض — فى الحركة التعاونية — الا يرد الربح فى صورة عائد الا بعد أن يستقطع منه مبلغ لاستخدامه فيما يسمى (بالمعونة الاجتماعية) فى لغة التعاونيين ، وهو ما يسمى بالمعنى الحديث (التكافل الاجتماعى).

وهذا المبدأ من أهم المبادىء التى نادى بها الاسلام ووضع الاسس العملية التى يمكن أن يقوم عليها ، وقد أتى تطبيقه بنتائج كانت خير دليل يثبت مدى قوة الجانب الانسانى فى الدعوة الاسلامية .

وقد اعتنقت الحركة التعاونية هذا المبدأ وجعلته بمثابة (زكاة)عن نشاطها .

فالتعاون لايهدف الى الربح ، وانما يهدف الى الخدمة .. والتعاون لا ينظر الى النشاط الاقتصادى على أنه هدف بذاته ، وانما ينظر اليه كوسيلة لتحسين معيشة الذين يخدمهم .

والتعاون لايهدف فقط الى تحقيق مصلحة أعضائه وانما يهدف أيضا الى توفير الخير للجميع حتى يؤمنوا به ويلتفوا حوله .

والواقع اننا نلاحظ ارتباطا تاما بين كل من (العائد) و (المعونة الاجتماعية) .

فكثيرا ما يخصص العائد أو جزء منه للانفاق على تحسين الحالة

الجماعية للأعضاء المتضمين للجمعية ، كما قد يفيد ايضا منه غير الاعضاء .

وكان تلامذة « روبرت أوين » « وشارل فورييه » وهما من رواد التعاون الاوائل يهتمون — فى المرتبة الاولى — برفع مستوى الحياة المشتركة أكثر من اهتمامهم بخفض أسعار السلع الاستهلاكية .

ويقول و . ب . وتكنز انه :

ثمة جمعيات تعاونية تعتبر من أفضل الجمعيات وأكثرها معرفة بشئون العمل التعاونى ، تلك التى تعنى بملاحظة المبادىء الاساسية للتعاون . والنشاط التجارى بالنسبة لهذه الجمعيات ليس هدفا بذاته ؛ بل هو وسيلة لتحسين حياة الاعضاء الذين ينتمون اليها وكذلك أفراد عائلاتهم . وفى غالب الاحيان يشمل جماعة من الاشخاص تتعدى هذا النطاق .

وقد كانت احدى الطرق المتعارف عليها لدى الجمعيات التعاونية خلال القرن التاسع عشر — أن يسحب مبلغ من أرباح الجمعية لانفاقه على مساعدة الاعضاء الذين تنزل بهم احدى كوارث المرض أو البطالة أو غير ذلك من المصائب العائلية ، ثم تكتلت بعد ذلك الجمعيات التعاونية لتنشيء فى بريطانيا مستشفيات لعلاج الاعضاء بالمجان أو بأجور معقولة ..

ولم تلبث المنظمات التعاونية أن تسابقت فى انشاء مؤسسات اجتماعية أخرى كجمعيات الاسعاف التعاونى فى بريطانيا ، وجمعية « الرعاية الاجتماعية » فى بلجيكا . وهذه الجمعية الاخيرة مكنها اتساع أعمالها ونجاحها المطرد ليس فقط من دفع مساعدات مالية لاعضائها ، بل مكنها من مضاعفة العناية بالمرضى أيضا ، فانشأت مصحات للمصدورين ، ومركزا لمعالجة أمراض الروماتيزم ، وللاشخاص المسنين انشأت (بيت الشيوخ) وللمرضى فى دور النقاهة أسست بيوتا للاستجمام على شواطىء البحر ، وبيوتا للراحة خاصة بالاطفال ، وقد جهزت بعض بيوت النقاهة والراحة على نحو يمكن من تأمين العلاج الوقائى للاطفال الضعفاء أو الذين هم عرضة لامراض مختلفة .

وعند ما دخلت الحركة التعاونية بلجيكا كان اعضاؤها يعانون من انخفاض مستوى المعيشة فأخذت الحركة التعاونية على عاتقها محاولة الارتفاع بهذا المستوى بشتى الطرق ، فقد كان للاعضاء العاطلين مثلا الحق فى الحصول على حصة يومية من الخبز بالمجان ، كذلك أدخلت بعض الجمعيات فى صلب نظامها — استنادا الى مواردها والى حاجات

اعضائها – (منح الامومة) وانشأت عيادات للاطفال ومراكز للاشخاص الذين تقعدهم الشيخوخة أو غيرها من الاسباب عن العمل .

وفى فرنسا انشأت الحركة التعاونية الاستهلاكية فى عام ١٩٢١ مؤسسة (الطفولة التعاونية) وتدير هذه المؤسسة مراكز للراحة خاصة بالاطفال الذين يمكنهم فيها الافادة من الشمس والهواء النقى . وقد انتشر أخيرا هذا النوع من المساعدة هناك بعد أن أنشئت جمعية خاصة (للمساعدة التعاونية) تزيد ميزانيتها على ٢٦٠ مليون فرنك ، ولها اثنا عشر فرعا فى مختلف مناطق فرنسا .

وفى كل من الهند والولايات المتحدة الامريكية تكثر الخدمات الطبية التعاونية حيث تقوم جمعيات تعاونية أنشئت خصيصا لهذا الغرض ببذل المساعدة للمرضي والناقهين .

وفى سويسرا اهتمت الحركة التعاونية بانشاء مؤسسة خاصة لمباشرة التطور الاجتماعى فى المناطق الفقيرة أو المتأخرة ، وخاصة فى المناطق البعيدة عن الجبال .

وهذه المؤسسة تمولها اعانات مستمدة من (اتحاد تعاونيات الاستهلاك) ومن الجمعيات التعاونية التابعة له .

وتتناول جهود هذه المؤسسة اجراء اختبارات فنية وتأمين على الثروة الزراعية ، وتنظيم أوقات الفراغ ومد انابيب المياه ، وتحسين حالة المواطنين الصحية ، وشق الطرق ، وبناء المدارس فى القرى ، وما الى ذلك من مختلف المشروعات العامة .

وفى ايطاليا وجدت تعاونيات (رافين) التى رصد لاعمالها مبالغ ضخمة ، ساهمت بها الجمعيات التعاونية القائمة ، وتقوم هذه التعاونيات بمنح الاعانات لمستحقيها وانشاء مراكز استجمام للاطفال على شاطىء البحر وفى الجبال ، وبمساعدة الافراد فى حالتى العجز والوفاة ، كما تنفق على مختلف الاعمال الثقافية والخيرية .

وقد تتضامن الجمعيات التعاونية للمساعدة فى تخفيف أثر الكوارث التى تحدث خارج حدودها ، وقد حدث ذلك عند وقوع فيضان هولندة الشهير ، وكذلك عند وقوع فيضان نهر (البو) .

وهكذا تشكل الحركة التعاونية مساهمتها فى النهوض بالمجتمع طبقا لمقتضيات الظروف والأحوال التى تحيط بهذا المجتمع .

والدعوة الاسلامية عندما نادت بمبدأ (المعونة الاجتماعية) . انما كانت تضع أعظم أساس سارت عليه الحركة التعاونية .

وعندما نستعرض هذا المبدأ فى الاسلام لا يسعنا الا أن نبدأ بأول أساس متين وضعه الله لتثبيت هذا المبدأ ، حيث جعله يشكل ركنا من أركان الدين الخمسة ، ذلك الاساس هو : الزكاة .

والزكاة فى نظر الاسلام ان هى الا تطهير للمال الذى تخرج منه تطهير له من تبعة الحق الذى جعله الله فيه المساكين :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم » .

« وسيجنبها الاتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى » .

ونظرة الاسلام للزكاة هى نظرة التعاون الحديثة للعائد والمعونة الاجتماعية نفسها .

فالاسلام على الرغم من اقرار حق الملكية الفردية ، ينظر الى الفرد باعتباره وكيلا فى هذا المال عن الجماعة ، لان المال فى عمومه انما هو ملك لتلك الجماعة ، كما انه لم يدخل الى خزائن الفرد الا بتعاون أسهم فيه عدد من أفراد هذه الجماعة ، ومن هنا يترتب للجماعة بهذه الصفة حق مؤكد فيه :

(وفى اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .

(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) .

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم العقوبة التى تنتظر الغنى الذى لا يؤدى هذا الحق :

(عرض على أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدى حقه ، وفقير فخور) .

والاسلام ينظر الى المال على أنه ملك لله قبل كل شىء .

(آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم . »

« وما بكم من نعمة فمن الله »

وهكذا فرض الاسلام الزكاة التى يمكن أن نسميها بلغة التعاون (عائدا يصرف للمعونة الاجتماعية) ، فهى عائد لانها عبارة عن رد لجزء

من الدخل الى الجماعة التى أسهمت فى ايجاد هذا الدخل ، وهذا العائد يصرف للمعونة الاجتماعية بقرار محدد من الله سبحانه وتعالى :

« واعلموا انما غنمتم منشيء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

وكان خمس غنائم الافراد يقسم أيام الرسول صلى الله عليه وسلم خمسة أقسام توزع طبقا للآية الكريمة .

وقد استفتى الخليفة هارون الرشيد الفقيه « أبا يوسف يعقوب الأنصارى » فى هذا الشأن فأفتاه (بالتوسع فيما يشمله هذا الخمس بجعل الغنيمة كل ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير . والركاز ــ وهو الذهب والفضة ــ الذى خلقه الله فى الارض يوم خلقت ، والكنوز العادية التى تصاب فى غير ملك أحد ، وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر ، كل ذلك حكمه واحد . وهو أن لبيت المال خمسه ، أما أربعة الاخماس الباقية فتكون حقا لصاحبها) .

ولم يكتف الاسلام من مال الغنى بالزكاة المفروضة ، بل أوجب عليه أن يساهم فى المشروعات العامة التى يقوم عليها أمر الأمة ويصلح به حالها ، كما حبب اليه الانفاق فى سبيل الخير وطرق البر المتنوعة ، مبينا له أن كل مبلغ ينفق فى هذا السبيل انما هو قرض لله عظيم الربح :

« واقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا » .

« وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » .

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وقد حدد الله موعدا مناسبا لرد هذا القرض :

« يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » .

ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم الناس اجمعين الى عمل الخير الذى يعود بالنفع على الناس أجمعين :

(أحب الناس الى الله أنفعهم لعياله) .

(خير الناس أنفعهم للناس) .

الا ما أشد اقتراب التعاونيين من الفاظ الرســول عليه الصــلاة والسلام عندما وضــــعوا تعبيرهم العالى عن المبــدأ الذى اتخــذوه شعارا لهم .

(الفرد للمجموع ، والمجموع للفرد) .

وقد كانت ثروة أبى بكر يوم اسلامه تقدر بأربعين ألف درهم ادخرها من ربح تجارته ، وبعد اسلامه واصل تجارته وربح منها ، وعلى الرغم من ذلك فانه لما هاجر الى المدينة بعد عشر سنوات لم يكن له من ذلك كله غير خمسة آلاف درهم ، فأما سائر ماكان عنده فقد أنفقه فى ســبيل الدعوة لله ولرسوله ، كما افتدىبجزء منها الضعفاء والارقاء الذين أسلموا فعذبهم سادتهم لاسلامهم .

والاسلام ــ كما رأينا فى التعاون ــ يحرص على وصــول السلع والخدمات الى مستهلكيها جيدة فى نوعها ، سليمة فى وزنها ، وهذا هو ماتعتبره الحركة التعاونية نوعا من العائد .

فالاسلام ينهى عن التطفيف فى المكيال والميزان ، أو الانتقاص من أجر العامل :

« فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم (1) » .

وهو يهدد من يخالف هذا الأمر ويعده بعذاب شديد :

(ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يســتوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) .

وفى الحديث القدسى :

(ثلاثة أنا خصمهم : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره) .

وفى الحديث الشريف : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه »
والاسلام يحرم الغش فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« البائعان بالخيار مالم يتفرقا . فان صــدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

---

(1) سورة الأعراف من آية (84) .

ولما كان الاحتكار يفتح الباب أمام الغش فقد نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

(من احتكر فهو خاطىء) .

(من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه) .

وقد استجلب الاواون لهذه التعليمات وطبقـــوها حتى وصـــلوا فى تطبيقها أحيانا الى حد المبالغة : فقد حكى أنه كان من العـــرب من كان ينصب الجفان الواســـعة فى عرض الطريق ويملؤها طعاما طيبا ليأكل منها الناس .

وكان عبد الله بن جدعان التيمى يفعل ذلك . وورد فى (القاموس) (وربما كان يحضر النبى صلى الله عليه وسلم طعامه) .

وكانت لعبد الله هذا جفنة يأكل منها القائم والراكب على البعير ، وقد سقط فيها يوما صبى فغرق ومات .

وفى غريب الحديث لابن قتيبة : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (كنت استظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان) .

وها هو ذا أحد أئمة المسلمين يضرب لنا امثلة فى تطبيق رســـالة الدين علىالتجارة : ذلك أن أبا حنيفة جمعيين التعمق فىالاسلام والتعمق فى فن التجارة ، فلنشاهد اذن صـــــورا من نتائج تطبيق هذه التجربة الفريدة :

جاءت الى دكان أبى حنيفة امراة عجوز تطلب ثوبا وتوسلت اليه بسنها أن يرفق بها فى الثمن ، فقال : دونك هذا الثوب يا أماه .

قالت : بكم ؟ . قال : بأربعة دراهم .

فلم تصدق المرأة هذا الثمن البخس وقالت له : لا تسخر منى ، فقال أبو حنيفة : انه لكذلك ، لقد اشتريت ثوبين فبعت احدهمـــا بالثمن كله الا أربعة دراهم ، وهذا هو ما أطلبه منك ثمنا للثوب الباقى .

وكان من مبادئه لشدة تحرزه أن يتجنب الاعلان عن بضـــاعته حتى لا يؤثر رأى المشترى الى حد أنه عندما اتى الى محله أحد المشترين طالبا شراء ثوب من الخز قال لابنه : ياحماد اخرج ثوبا .

فأخرج حماد الثوب ، ونشره قائلا بلهجة فيهـــا الكثير من المباهاة بالثوب : « صلى الله على محمد » . فقال أبوه : مه . قد مدحته .

ورفض أن يبيعه الرجل .

وكان أبو حنيفة شريكا مع حفص بن عبد الرحمن ، فترك له المحل ذات مرة بعد أن أعلمه أن فى أحد الاثواب عيبا كى يظهره للناس ، غير أن حفصا قام ببيع الثوب واستوفى ثمنه بالكامل كما لو كان غير معيب ، فأبى أبو حنيفة الا أن يكلف شريكه البحث عن المشـــترى لاطلاعه على الحقيقة ورد الفرق اليه ولما لم يهتد حفص الى المشترى أبى أبو حنيفة الا فصالا من شريكه ، وتصدق بنصيبه فى ثمن الثوب .

وكان ابو حنيفة ينصف البائع كما ينصف المشترى منه ، فقد جاءه رجل يبيعه ثوبا ، فقال له : بكم ؟ قال له الرجل : بكذا ، قال ابو حنيفة : انه يستحق اكثر ، وظل يزيده حتى وصل الى الثمن الذى يراه أبو حنيفة عادلا .

وثمة مثل آخر لأحد مفكرى الاســـلام الاقتصاديين : ذلكم هو أبوذر الغفارى الذى تزعم فى زمنه دعوة الاشتراكية الاســـلامية ، فطالب الاغنياء بعدم اكتناز الذهب والفضة ، وبالانفاق منهما على الفقراء وعلى المصلحة العامة للمسلمين .

وعندما رأى معاوية منه ذلك استعمل الحيلة للقضاء عليه ، فأرسل اليه رسولا تحتجنح الظلام ومعه كيسفيه الف دينار ليعطيه اياه ، وفى الصباح أوفد اليه معاوية الرسول مرة اخرى وقال له : اذهب الى أبى ذر ، فقل له : أنقذ جسدى من عذاب معاوية ، أرسلنى الى غيرك وانى اخطأت بك فلما قال ذلك لابى ذر اجابه : يا بنى قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها .

فعلم معاوية أنه أنفقها على الفقراء عقب تسلمها ولم يبقها فى داره ليلة واحدة .

وهكذا نرى أن الاسلام قد أضاء للبشريةطريق (التكافل الاجتماعى)

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

الفصل السادس

البيع بالنقد

« الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » .

« قرآن كريم »

(ان التعامل نقدا فضيلة من اكبر الفضائل وهو خير ما ترمى اليه الحركة التعاونية لأن الاستدانة مذلة ومهلكة ، والمشترى بالاجل من السوق لا يتذمر من السعر الذى يملى عليه من البقال أو الخباز أو الجزار ولا من الوزن أو الصنف الذى يفرضه عليه البائع ولا يستطيع أن يتحرر من التعامل معه ويتركه الى غيره وهو يقبل منه ذلك راضيا أو كارها والا اقفل حسابه معه ، ويستمر هكذا حتى يتردى فى أوضاع وارتباكات مالية لا يجد منها خلاصا الا بأن يفر خلسة من منزله ومن الحى الذى يقيم فيه) .

شارل جيد — التعاونى الفرنسي

ان دعوة لا تقصر رســالتها على شــئون الأمم والافراد الخلقية والمعنوية ، بل تتعدى ذلك الى معالجة الشئون الاقتصادية لهؤلاء الذين توجه اليهم ــ مثل هذه الدعوة يكون من الطبيعى لها أن تجعل من مبادئها التى ترتكز عليها فى قيامها مبدءا هاما ، وهو مبدأ :

(التعامل بالنقد) .

وهكذا دعت اليه الرسالة المحمدية ، وهكذا تمســكت به الحركة التعاونية .

وهذا المبدأ يهدف الى حماية العضو من الاستدانة ، وما يتبعها من مساو تلازم حياة الافراد ، كمـــا تهدف الى المحافظة على ميزانية هؤلاء الافراد من الارهاق ، وكذلك تهــدف الى الحيلولة بينهــم وبين تكليف انفسهم مالا تطيق .

وانه ــ وان كانت أساليب الحياة الحديثه بما فيها من مطالب كثيرة ، ومتجددة وسريعة التغير ، مما أبعد التعاون فى بعض أوجه نشاطه عن ممارسة هذا المبدأ ، وخاصـــة بعد ظهور أســاليب جديدة فى معاملات الناس التجارية كأسلوب البيع بالتقسيط ــ لايمكن ذلك أن يمنعنا من أن نناقش هذا المبدأ ونبين مزاياه التى مازال أغلب التعاونيين يعتبرونها من أهم مزايا الحركة التى يدعون اليها .

***

كما يرى كثير من المفكرين أن فى التخــلى عن مبدأ التعامل بالنقد خروجا عن التعاون الحقيقى واتباعا لاحدى الرذائل الناتجة عن مدنية العصر الحديث .

فالجمعية التعاونية ليس من رسالتها زيادة المبيعات بقدر ما هو من رسالتها المحافظة على سلامة القوة الشرائية الحقيقية لاعضائها مع عدم تحميلهم أعبـــاء فوق طاقتهم ، وذلك ســـواء فيما يتعلق بزيادة كمية المشتريات وقيمتها ، أو باضافة فوائد على أثمان البضائع المبيعة بالاجل .

فالفرد الذى يعتاد عملية الشراء بالاجل انما ينزل بهــذه العادة ــ

كارها أو مختارا — عن جزء من حريته الشخصية فهو مضطر ان يتعامل مع تاجر معين ، ذلك التاجر الذى اتفق معه على التعامل بالأجل ، وهو مضطر أن يقبل السعر المفروض على السلعة التى يشتريها من هذا التاجر ولو كان السعر مرتفعا ، وهو أيضا مضطر الى التغاضي عن عيوب قد تكون فى السلعة التى يشتريها من هذا التاجر بالاجل ، وأخيرا هو مضطر أن يبقى مدينا فترة قد تطول ، وقد يظل مدينا دينا مستمرا ، اذ أن الاقتراض كغيره من العادات لايلبث أن يسيطر على الشخص الذى يمارسه ، وربما لا يستطيع منه فكاكا ، فيخرج من دين لكى يقع فى براثن دين جديد .

وتاريخ وجود هذا المبدأ فى الحركة التعاونية يرجع الى تاريخ الحركة نفسها .

ففى عام ١٨٤٤ ورد فى المادة الثانية من قانون الجمعية التعاونية الأولى نص على : (أنه ليس لأى شخص الشراء بالنيابة عن الجمعية الا من خولته الجمعية ذلك الحق صراحة من المجلس والمأمورين بالادارة ، وليس لاى منهم ابرام اية عملية بغير النقد ، وكذلك هم غير مأمورين بالبيع بالاجل فى اية حالة وكل من يخالف هذه المادة يجازى بغرامة قدرها عشرة شلنات ، ويفقد صفة العضوية للمنصب المختار له) .

كما نصت المادة (٢٦) من القانون نفسه على أن (تدفع أثمان البضائع المبيعة للأعضاء فورا فى أثناء تسليمها للمشترين) .

وقد ثبت أن اتباع مبدأ التعامل بالنقد يساعد على ازدهار الحركة التعاونية .

ففى سنة ١٨٤٧ قل اقبال العمال فى انجلترا على الاشتراك فى عضوية الجمعيات التعاونية ، وكان السبب فى ذلك راجعا الى أن اغلب هؤلاء العمال كانوا مدينين لتجار التجزئة دينا أدى الى ارتباطهم بهؤلاء التجار ، على الاقل حتى الانتهاء من دفع ديونهم ، وعندما ألف هؤلاء العمال مبدأ التعامل بالنقد أقبلوا على الانضمام للجمعيات التعاونية وزيادة اكتتاباتهم فيها .

على أنه لا يفوتنا أن ننبه فى هذا المجال الى ان مبدأ التعامل بالنقد لا يمكن أن يكون حائلا بين الجمعية التعاونية ومساعدة بعض أعضائها الذين قد تصادفهم ظروف غير مادية ، كالبطالة او المرض ، او غير ذلك من الكوارث ، ففى مثل هذه الحالات تشعر الجمعية التعاونية ان من واجبها

أن تتقدم لمساعدة هؤلاء الاعضاء لتمد لهم يد المساعدة بمنحهم قروضا لأجل معين بدون فائدة غالبا أو بمنحهم ما يحتاجون اليه من سلع الجمعية مع تأجيل دفع الثمن ، وبدون اضافة فائدة ما على أثمانها الفعلية ، هذا اذا لم تمنحهم هذه الجمعيات اعانات تساعدهم على الشراء .

والاسلام الذى اهتم باصلاح الناحية الاقتصادية ، وتنظيم التعامل بين الافراد لصلحتهم ، والذى قرن المعاملة بأصل الدين فيحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(الدين المعاملة) .

هذا الدين كان لابد أن ينادى بمبدأ التعامل بالنقد .. فبدأ بمعالجة المشكلة من جذورها بأن أعلن الحرب على الربا الذى يعتبر قرين التعامل بالاجل وآفته :

« يأيها الذين آمنو اتقوا الله وذروا مابقى من الربا ان كنتم مؤمنين. فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » .

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وقد ورد فى جواهر البخارى عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى الى أرض مقدسة فانطلقنا حتى اتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذى فى النهر ، فاذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى فيه بحجر فيرجع كما كان فقلت : ماهذا ؟ فقال : الذى رأيته فى النهر آكل الربا) .

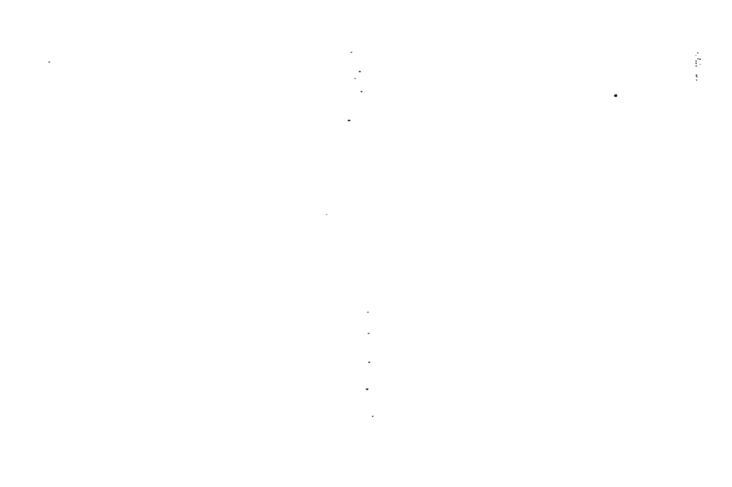


الفصل السابع

الاقتصاد

(والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .

« قرآن كريم »



لما كانت الحرية التعاونية تهدف الى تحقيق اكبر قدر من الرفاهية للانسان كان لابد لها من أن تلتزم السير على القواعد الكفيلة بتحقيق أكبر قدر من الوفر والاقتصاد للمنتفعين بها فى كل عمل يمكن أن يمتد اليه نشاطها .

ذلك أن كل مبلغ تقتصده الجمعية التعاونية انما هو فى واقع امره وفر لمجموع أعضائها والعكس أيضا صحيح ، فان كل انفاق زائد تقوم به الجمعية انما هو تبذير فى أموال هؤلاء الاعضاء .

ولهذا كان لابد للجمعية التعاونية التى تلتزم فى سيرها الأسس السليمة للتعاون ، وتطبق مبادئه أن تجعل شعارها الاعتدال فى الانفاق سواء فيما يتعلق بمشترياتها أو بما تنفقه من مصروفات على تأسيس الجمعية أو تأثيثها وادارتها .

والجمعيات التعاونية ليست فى حاجة الى (تزويق) أو اعلان ، كما انها ليست فى حاجة الى الدعاية لخدماتها ومنتجاتها ، ان الجمعية التعاونية انما أنشئت برغبة وشعور بالحاجة اليها من أعضاء ساهموا فى ايجادها ، وهم انفسهم الذين يقومون بالتعامل معها دون حاجة الى دعاية أو اعلان .

وغالبا ما يكون الدافع الاساسي لمجموعة من الاشخاص على ان تتعاون فى انشاء جمعية مشتركة — هو رغبة هذه المجموعة فى تحقيق وفر فى تكاليف أداء العمل أو الخدمة التى تجمعوا من أجل ادائها .

وقد كان الدافع الى قيام الجمعية التعاونية الروتشدالية الأولى فى عام ١٨٤٤ هو الفقر والرغبة فى التغلب عليه .

ففى شهر نوفمبر من عام ١٨٤٣ اجتمع خمسة عشر عاملا من عمال النسيج البائسين بقرية روتشديل فى لانكشير بانجلترا ، بعد أن طردوا من أعمالهم بسبب انتشار الآلية فى المصانع انتشارا دفعهم الى حالة الفاقة والبؤس .

وتباحث هؤلاء العمال فى الوسيلة المثلى التى يمكن أن تؤدى الى

تحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية لمواجهة هذا الموقف العصيب ، ولم يجدوا حلا لمشكلتهم اكثر ملاءمة لتحقيق هذا الغرض سوى اللجوء الى التعاون .

واتفق هؤلاء العمال فيما بينهم على أن يدفع كل واحد منهم — وكان عددهم قد زاد حتى بلغ ثمانية وعشرين عاملا — بنسين أسبوعيا لتكوين رأس مال جمعيتهم التعاونية ، وقد كان الكثير منهم يتخلف مضطرا عن أداء هذا القسط فى موعده ، حتى بلغ الاكتتاب ثمانية وعشرين جنيها فى أكتوبر عام ١٨٤٤ .

وبهذا المبلغ الضـئيل بدأت الجمعية التعاونية الأولى فى مزاولة اعمالها : فقام الاعضاء باستئجار طابق أرضي فى أحد المنازل المتواضعة ليكون مقرا لجمعيتهم ، واشتروا بمـا بقى من المبلغ كميات بسـيطة من المواد الغذائية الضرورية لمعيشتهم اليومية مثل الدقيق والسكر .

وفى ليلة الافتتاح اجتمع جمهور كبير من التجار والصـبية ليقذفوا هؤلاء العمال بنكاتهم وسخريتهم من المحل الحقير والقائمين بتأسيسه .

وكان يقوم بالبيع فى ذلك المحل أحد الاعضـاء كما يقوم زميل له بامساك دفاتر وحسابات المحل .

وهكذا قام هؤلاء الاعضاء القليلون من البائسين ووضعوا بجمعيتهم الصغيرة نواة للحركة التعاونية ، ليس فى انجلترا فقط ، بل أيضـا فى العالم بأسره .

وقد كان الاسلام حكيما عندما دعا الى هذا المبدأ ، فالاسلام لم يدع الى الاقتصاد الذى قد ينقلب الى نقيضه اذا وصل الى حد التقتير ، وانما دعا الى الاعتدال والحكمة فى الانفاق :

« ولا تجعل يدكَ مغلولة الى عنقكَ ولا تبسـطها كلَ البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ويضرب لنا حكام الاسلام الاوائل أروع الامثلة فى تطبيق هذا المبدأ والالتزام به فى حكمهم لأمتهم .

فها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما دخل عليه عمر ذات يوم ، فوجده مضطجعا على حصير قد ترك أثرا فى جنبه فقال له :

أفلا تتخذ لك فراشا وطيئا لينا يا رسول الله ؟

فيجيبه عليه الصلاة والسلام :

(مهلا يا عمر . أتظنها كسروية ؟ انها نبوة لا ملك !) .

وهكذا حدد الرسول اية ميزة للنبوة واى فارق بينها وبين الملك حدد عليه الصلاة والسلام هذا الفارق فى (الاقتصاد) .

والخليفة الاول أبو بكر ، عندما ترك تجارته ليتفرغ لشئون المسلمين جعل له أصحابه من بيت المال مايصلح به نفسه وعياله ، فلما رأى انه مشرف على الموت لم تطب نفسه لما أخذ من بيت المال ، بل قال :

ردوا ما عندنا من مال المسلمين فانى لم أصب من هذا المال شيئا ، وان أرضي التى بمكان كذا وكذا — للمسلمين بما أصبت من أموالهم .

وقد أوصي رضي الله عنه أن يكفن فى ثوبين له كان يلبسهما وقال :

كفنونى فيهما فان الحى احوج للجديد من الميت .

فأى مثل أروع لتمثيل قاعدة التوفير والاقتصاد من هذا المبدأ ؟

***

وكان عمر اذا استعمل عاملا ، كتب له واشترط عليه أنه :

(لايركب برذونا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون ذوى الحاجات ، فان فعل فقد حلت عليه العقوبة) .

كما كان يكتب أموال عماله اذا ولاهم ، ثم يقاسمهم مازاد عليها .

وقد حدث ذلك مع سعد بن أبى وقاص عندما ولاه على الكوفة ، وحدث مثله مع عمرو بن العاص والى مصر ، فقد كتب عمر مرة اليه ما معناه :

(انى قد خبرت من عمال السوء ما كفى ، وكتابك الى كتاب من أقلقه الاخذ بالحق ، وقد أسأت بك ظنا .. ووجهت اليك « محمد بن سلمة » ليقاسمك مالك ، فأطلعه على مايطلب ، وأخرج اليه ما يطالبك ، وأعفه من الغلظة عليك فانه برح الخفاء) .

وذهب اليه الرسول بهذه الرسالة ، فقاسمه ماله .

وقد مثل يوما احد الولاة بين يدى عمر ليحاسبه ، فلما رأى لديه مظاهر ثروة جديدة سأله عن مصادرها وكيف آلت اليه فى أثناء توليه؟.. فقال الوالى :

انى قد تاجرت فربحت .

فصادر عمر الثروة قائلا للوالى :

اننا والله ما ارسلناك للتجارة

ويقول الخليفة عمر بن الخطاب :

« انه لا يحل لعمر من مال الله الا حلتان : حلة للشتاء ، وحلة للصيف ، وما احج به واعتمر ، وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم انى — بعد — رجل من المسلمين » .

وقد أشفق عليه بعض أولاده يوما فقال له : لو أكلت طعاما طيبا كان أقوى لك على الحق .

فقال لهم عمر : أكلكم على هذا الراى ؟

فأجابو : نعم .

قال عمر ما معناه : علمت نصحكم ، ولكنى وجدت صاحبى : الرسول وابا بكر ، على جادة ، فان تركت جادتهما لم أدركهما فى المنزل .

ودخل عمر على ابنه عاصم يوما فوجده يأكل لحما ، فسأله : ماهذا ؟

فأجاب عاصم : لقد اشتهيت اللحم .

فقال عمر : أوكلما اشتهيت شيئا أكلته ، كفى بالمرء أن يأكل كل ما اشتهى .

وروى أن عمر كان يرتدى جبة مرقوعة ، وقميصا قد وصل عدد الرقاع بين كتفيه الى أربع .

وفى اثناء خلافته ، بل فى العام الثامن عشر من الهجرة ، وهو الذى يسمى عام الرمادة — أصاب الناس قحط شديد حتى ماتت مواشيهم جوعا .

وأقسم عمر الا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما حتى تنفرج الحال . وفى أحد الايام وصلت الى سوق مكة عكة سمن (أصغر من القربة) ووطب من لبن ، فاشتراها احد غلمان عمر بأربعين درهما ، ثم أتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين قد ابر الله يمينك وعظم اجرك ، قدم اليوم الى السوق وطب من لبن ، وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهما ، فقال له عمر : تصدق بهما فانى اكره أن آكل اسرافا .

هكذا يضع واحد من حكام المسلمين قواعد مثالية لتفاصيل هذا المبدأ التعاونى ، الاقتصاد والتوفير .

وعندما جاء الى عمر بن عبد العزيز أيام خلافته ، احد اصدقائه ليكلمه فى عطية قدرها عشرون ألف دينار ، كان قد أمر له بها أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وتوفى قبل أن تصرف له ، دخل الصديق على عمر وقال له :

يا أمير المؤمنين ، ان أمير المؤمنين سليمان كان قد أمر لى بعشرين الف دينار حتى انتهت الى ديوان الختم ، ولم يبق الا قبضها فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان .

فقال له عمر : وكم ذلك ؟

اجاب الرجل : عشرون ألف دينار .

فرد عمر بن عبد العزيز :

عشرون الف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من بيوت المسلمين وأدفعها الى رجل واحد ؟ والله مالى الى ذلك من سبيل .

ولما بلغه ان بعض أولاده قد اتخذ خاتما واشترى له فصا بألف درهم ، كتب اليه :

(أما بعد فقد بلغنى انك اشتريت فصا بألف درهم ، فبعه واشبع به الفجائع ، واتخذ خاتما من حديد ، واكتب عليه « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه ! ») .

الفصل الثامن

العلانية

(وأمرهم شورى بينهم)

« قرآن كريم »

لاسرية فى دعوة جماعية ، دعوة تخاطب الصغير والكبير ، وتتجه الى الفقير قبل أن تتجه الى الغنى ، وتفتح ابوابها للناس جميعا من كل لون وجنس .

لا سرية فى الاسلام ، لا سرية فى التعاون .

وهكذا تحتل ((العلانية)) مكانها فى الدعوة الاســـلامية ، ثم تجىء الحركة التعاونية لتضمها كمبدأ من مبادئها .

والعلانية فى الحـــركة التعاونية تعنى أن لكل فرد الحـــق فى ان يعرف كل ما يحيط بجمعيته من ظروف ومشاكل ، وان من حقه ، بل من واجبه ان يشترك فى حلها .

وتطبق الحركة التعاونية هذا المبدأ بأمانة فى قوانينها ونظمهـــا ، فان جميع القوانين التعاونية لا تخلو من النص على أنه لا يمكن النظر أو البت فى امور الجمعية الهامة الا بعد دعوة الجمعية العمومية المكونة من جميع اعضاء الجمعية للنظر فى هذه الأمور ، وتقرير ما تراه .

ومن امثلة هذه الأمور الهامة حل الجمعية أو تصفيتها أو زيادة رأس مالها أو رفع حد المســـئولية الى غير ذلك من الامور التى تمس شـــئون الاعضاء ومصالحهم .

كما أن هذه القوانين والنظم تعطى العضو الحق فى الاطلاع على حسابات جمعيته ، ومناقشته بنود ميزانيتها السنوية مع المشرفين على ادارتها ، كما تعطيه الحق فى معرفة مدى الخسارة واسبابها ، أو مقدار الربح وكيفية توزيعه .

والجمعية التعاونية تتبع مبدأ العلانية فى مشترياتها ومبيعاتها وفى تجميع المعلومات اللازمة لمباشرة عملها .

كل ذلك برغم ان المشروعات المالية والتجارية كثيرا ما تجعل الالتواء والسرية جزءا من طبيعتها ، ولكن التعاون لايعترف بهذا الاســـلوب فى اعماله لان الاخفاء قد يكون ستارا يؤدى الى النفعية والرشوة ، ومن ثم الى الاضرار بالمشتركين ، وفى الظلام يمكن أن يتم أى شىء .

ولما كانت الجمعيات التعاونية المحلية كثيرا ما تتجمع لاقامة هيئات تعاونية اعلى فى كل دولة ، وهذه الاخيرة تتجمع لتكوين منشآت تعاونية دولية ، فاننا لذلك نجد أن العضو التعاونى الصغير المشترك فى جمعيته المحلية له صوت مسموع ، يسير مع التشكيل التعاونى حتى يصل فى تأثيره الى النطاق التعاونى على الصعيد الدولى ، اذ أن هذا العضو له الحق فى كل هذه المراحل أن يعرف ويدرس ويدلى بكل مايعن له من آراء.

وعندما نص الاسلام على الشورى فى قوله تعالى « وشاورهم فى الامر » انما كان يضيف بذلك الى مبادىء الدعوة مبدءا لا غنى لها عنه وهو مبدأ (العلانية) .

وقد انطبعت تصرفات حكام المسلمين فى صدر الدعوة الاسلامية حيال رعيتهم بهذا المبدأ .

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكف عن استشارة اصحابه فى كل مايتعلق بأمور المسلمين الدنيوية تطبيقا لشعاره المعبر عن هذا المبدأ : (أنتم اعلم بشئون دنياكم) .

بل ان الرسول صلى الله عليه وسلم كون ما يمكن أن نسميه بلغة التعاون الآن (مجلس ادارة) لجماعة المسلمين ، وكان هذا المجلس فى تكوينه يدل على اختيار دقيق ، اذ أنه جاء ممثلا لطوائف الأمة الاسلامية فى ذلك الوقت .

ويحدثنا السيد / محمد كرد على فى كتابه عن (الاسلام والحضارة العربية) :

أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما انفك عن استشارة أهل الراى والبصيرة ومن شهد لهم بالعقل والفضل ، وابانوا عن قوة ايمان ، وتفان فى بث الدعوة الاسلامية ، وهم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حمزة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وابن مسعود ، وسليمان ، وعمار ، وحذيفة ، وأبو ذر ، والمقداد ، وبلال ، وقد سموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول اسلام قومهم .

ومن جهة اخرى نشاهد قوة ايمان الرسول صلى الله عليه وسلم بمبدأ العلانية فى واقعتين سبق ايرادهما بهذا البحث :

الأولى — عندما كتب الرسول معاهدة مع المشركين على منحهم نصيبا من ثمار المدينة لقاء رجوعهم عن حصارها ، ثم ماكان من الغاء هذه

المعاهدة قبل توقيعها بعد أن استشـــار الرســـول أصـــحابه فى أمرها ومعارضتهم لها .

والاخرى — ايام احد ، عندما خضع الرسول للرأى الذى اشارت به الاغلبية ، وكان يقضي بالخروج لحرب المشركين برغم معارضة هذا الرأى لرأيه الاصلى .

كما يتجلى ذلك الايمان ايضا يوم بدر ، فعندما اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر عن سير قريش دعا (الجمعية العمومية) للمسلمين حيث طرح على أعضائها الامر ليبحثوه ويدلوا فيه برأيهم .

وقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب ،فقال وأحسن ، وتبعه المقداد بن عمرو فقال ما معناه : يا رسول الله ، امض لما اراك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسي : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون (١) » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون .

وهنا اتجه صلى الله عليه وسلم الى جمهور المسلمين من الانصار طالبا رأيهم بقوله : أشيروا على أيها الناس .

وهكذا استمرت المناقشات حتى استقر رأى القوم على الخـــروج لملاقاة العدو .

وهنا يبارك الرسول عليه الصلاة والسلام هذا القرار بقوله :

(سيروا وابشروا ، فان الله تعالى قد وعدنى احدى الطائفتين ، والله لكانى الآن انظر الى مصارع القوم) .

هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى مقدما خبر النصر ثم يكتمه حتى يأتى قرار الناس خاليا من أى تأثير ، أو أن خبر النصر المقبل لم يأته صلى الله عليه وسلم الا بعد اتخاذ هذا القرار مباركة للشـــورى وامتداحا لها ؟ .

كلا الأمرين يسمو بمبدأ العلانية فى الاسلام ويدعمه .

ويسير الجيش الاســـلامى على بركة الله وهديه الى بدر حتى اذا اقتربوا من بدر ، اختار عليه السلام أقرب مورد ماء ليعسكروا حوله ،

---

(١) سورة المائدة من آية (٢٤) .

فيقوم واحد من أفراد ذلك الجيش الاسلامى وهو الحباب بن المنذر ابن الجموح ليناقش الرسول فى الأمر قائلا :

يا رسول الله ، ارايت هذا المنزل ؟ أمنزلا أنزله الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يارسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغور ماوراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربوا .

فأجابه صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى .

وأمر الرسول جيشه فنهضوا جميعا ونفذوا الخطة التى أشار عليهم بها الحباب بن المنذر .

وأكثر من ذلك نجد أن كثيرا من الأمور المتعلقة ببعض جوانب الدين قد أتت ثمرة للشورى ، ومن هذه الامور (الآذان للصلاة) الذى جعل منه الاسلام شعارا ينبه المسلمين الى حلول وقت وجوب الصلاة .

فقد كان المسلمون بعد الهجرة يجتمعون فى المسجد للصلاة دون ان ينادى بها أحد منهم ، فتشاوروا فى ذلك وقد زاد عددهم فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل النصارى ، وقال آخرون : اتخذوا بوقا مثل اليهود .

فقال عمر : أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة ؟

فقال الرسول : يابلال ، قم فناد بالصلاة .

فكان بلال اذا جاء وقت الصلاة ينادى : الصلاة جامعة .

وكان من المنادين عبد الله بن زيد الأنصارى ، فبينما هو بين النائم واليقظان اذ رأى شخصا يلقنه الآذان ، فحضر الى الرسول وقص عليه ما رأى .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : انها لرؤيا حق ، لقن ذلك بلالا فانه أندى صوتا .

ولما أذن بلال حضر عمر بن الخطاب يجر رداءه قائلا : والله لقد رأيت مثله يارسول الله .

وكثيرا ماكان عمر بن الخطاب يرى الراى فينزل به القرآن ، وكما قال على بن ابى طالب : ان فى القرآن لرأيا من عمر .

من ذلك ، أنه لما أشار عمر على الرسول صلى الله عليه وسلم باتخاذ مقام ابراهيم مصلى ، نزلت آية بهذا الراى .

وكذلك عند ما اقترح وضع الحجاب على نساء النبى ، وعندما توفى عبد الله بن أبى .. أحد أعداء الرسالة الاسلامية ، ودعى الرسول للصلاة عليه ، فقام اليه ، فاعترض عمر طريق الرسول ، مشيرا عليه بعدم أداء الصلاة عليه ، فنزل الوحى بقوله تعالى : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ... الآية) (1)

كما كان أبو بكر فى كثير من الأمور التى تقابله فى أثناء خلافته ، يصعد الى المنبر ليعرض هذه الأمور على جمهور المسلمين مستشيرا اياهم فى معالجتها ، ومكونا بذلك مايسميه التعاونيون الآن «بالجمعية العمومية» التى رأينا أن الرسول قد سبق بتكوين مثلها ، كما كان أبو بكر فى أمور أخرى يعقد مايمكن أن نسميه أيضا مجلس ادارة للجماعة الاسلامية ، وكان هذا المجلس مكونا على الاساس الذى وضعه الرسول ، فكان يجمع بين أفراد من المهاجرين والأنصار ، وكان من بين أعضاء هذا المجلس عمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت .

ويروى ميمون بن مهران : كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله ، فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضي به ، وان لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر سنة قضي بها ، فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : اتانى كذا وكذا فهل علمتم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قضي فى ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع اليه النفر كلهم يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء ، فيقول أبو بكر : الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فان أعياه أن يجد سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جمع رءوس الناس وخيارهم ، فاستشارهم فان اجمع أمرهم على رأى قضي به .

بل ان تولية أبى بكر نفسه للخلافة لم تتم الا بعد مشاورات ومناقشات طويلة ، اشترك فيها المسلمون بآرائهم حتى استقروا على القرار الاصوب ، فأجمعوا عليه .

---

(1) سورة التوبة من آية (85) .

وعلى الرغم من أن ابا بكر قد اختار عمر ليكون خليفة له ، فانه لم يخرج فى ذلك عن مبدأ الشورى ، بل كان أمينا عليه ، ملتزما اياه ، ذلك انه لما حضرته الوفاة قام فأشرف على الناس وقال : ايها الناس ، انى قد عهدت عهدا ، أفترضون به ؟

فقال الناس : رضينا ياخليفة رسول الله .. فقام على فقال :

لا نرضي الا أن يكون عمر ، قال أبو بكر : فانه عمر .

وعند ما تولى عمر الخلافة اتبع الطريق الذى اضاءه الرسول وسار فيه الصديق ، فكان فى كثير من الامور يعقد (جمعية المسلمين العمومية) بالمسجد ليسأل الناس آراءهم ، واذا ما أسفرت مناقشات هذه الجمعية عن رأى يخالف رأيه فانه كان يأخذ الرأيين ليعرضهما على (مجلس شوراه) المكون من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه .

وعند ما قدم ابو هريرة على عمر بن الخطاب من البحرين حاملا معه خمسمائة الف درهم كان أول مافكر فيه عمر هو أن يلجأ الى استشارة جماعة المسلمين فى امر هذا المبلغ ، وكيفية التصرف فيه فجمعهم بالمسجد ، وصعد المنبر وقال :

أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا كيلا ، وان شئتم أن نعد عدا .

فأشار عليه بعض المسلمين ممن جابوا بلاد الفرس والروم أن يدون الدواوين بأسماء الناس ، ويوضح قرين كل اسم نصيبه من هذا المال .

واتبع عمر هذا الرأى ، وأمر بتنفيذه ، فأحصيت جميع القبائل الحربية ووضعت السجلات فى صناديق كبيرة ثم بدأ عمر فى توزيع المبلغ طبقا لهذه السجلات .

وعندما حضرت عمر الوفاة لم تصرفه عن ذلك المبدأ الذى التزمه طوال حياته ، فكون مجلسا للشورى لانتخاب الخليفة الذى يليه .

وقد تكون هذا المجلس من : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة ابن عبيد الله ، وعبد الله بن عمر .

وقد ظل هذا المجلس منعقدا للتشاور ثلاثة ايام ، واسفرت مناقشاته عن حصر الخلافة فى واحد من اثنين هما : على وعثمان ، واستحكم الخلاف عند هذه النقطة ، فما كان منهم الا ان لجئوا الى جمعية الاسلام العمومية التى انعقدت بالمسجد ورفعوا اليها الامر للفصل فيه ، وانتهت مناقشات هذه الجمعية بمبايعة عثمان .

وقد اتخذ عثمان بن عفان فى أول خلافته مجلسا للشورى من بين الاشخاص الذين اعتمد عليهم أبو بكر وعمر من قبله .

ولم تنطفىء شعلة هذا المبدأ بوفاة الخلفاء الراشدين ، وانما ظلت هذه الشعلة متقدة تضيء بقدر رسوخ ايمان من يتلقفها من الحكام .

وهاهم أولاء صفوة من الخلفاء وحكام المسلمين يجعلون من العلانية مبدءا لهم يدينون به ويلتزمون اتباعه :

فعمر بن عبد العزيز منذ كان واليا على المدينة لم يكن يقطع أمرا بدون استشارة ، وكان قد كون مجلسا من الفقهاء حدد لهم مهمتهم فى أن يبينوا له زلاته ، اذا رأوا منه ذلك أو سمعوا .

وكذلك كان مروان بن الحكم فى ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ويستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه .

وأدرك معاوية بن أبى سفيان فوائد الشورى ، فما كان يصدر فى المهمات الا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعى ان يأخذ بآراء أشراف القوم وينزل على حكم وفود البلاد ، وكانت له مجالس يعقدها فى المسجد مع جمهور المسلمين تدور بحوثها حول سياسة البلاد وحكمها .

وفى عهد المقتدر جاءه قوم من زارعى فارس يشكون من مطالبتهم بتكملة جملة الخراج الذى كان مطلوبا منهم ، على الرغم من أن فريقا منهم قد هاجر عنهم بعد تقدير قيمة هذا الخراج ، وطلبوا أن يتحملوا بنصيبهم هم لاغير .

فراى المقتدر أن هذه المشكلة تتعلق بمبدأ ، وأن الفصل فيها يحتاج الى المشورة ، فطلب القضاة والفقهاء ومشايخ الكتاب والعمال والقواد ، حيث اجتمعوا جميعا فى دار الوزارة وطرح عليهم المقتدر هذا الموضوع لبحثه ، فانقسموا فيه الى فريقين ، وتناظر الفريقان ، حتى انتهى الاجتماع الى قرار ببطلان التكملة .

وقبل أن نختم هذا الفصل من بحثنا ، لايفوتنا أن ننوه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع الى اتباع مبدأ العلانية فقط ، ولم يكتف بأن تكون تصرفاته قدوة لمن يأتى بعده من الحكام وانما تولى بنفسه تدريب عدد ممن تولوا أمور المسلمين بعده .

فقد رأينا أن من بين الذين دربوا فى مدرسة الرســـول أبو بكر ، وعمر .

كما كان عمر وعثمان وعلى أعضاء فى مجلس الشورى الذى كونه أبو بكر فى اثناء خلافته .

الفصل التاسع

الحرية

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم
أحرارا)

« عمر بن الخطاب »

(لقد ظل الاستعمار يناوىء الحركة التعاونية
المصرية والحركة التعاونية العربية فى الوقت الذى
كان يكافح فيه الحركة التحريرية)

« حسين الشافعى »

والحرية شرط أساسي لنجاح أية دعوة تقوم على أساس من المنطق والعقل ،وتهدف الى خير الانسان ورفاهيته .

والحرية اذا كانت مبدءا من مبادىء أية دعوة كانت دليلا على قوة هذه الدعوة ، وعلامة على مدى ثقتها فى نفسها وان عقيدة أساسها القوة والارهاب لا يمكن أن تقوم لها قائمة ، فان قامت كان مصيرها حتما الى الانهيار .

وهكذا اتخذ الروتشداليون من الحرية مبدءا لهم ، ومنارا لطريقهم:

حرية التعاونى فى أن يعتنق أى دين أو أى مذهب .

وحريته فى أن يعتقد الرأى السياسي الذى يتفق مع ميوله .

وحريته فى أن يتعامل مع جمعيته أو لا يتعامل .

وأخيرا ، حريته فى البقاء عضوا بالجمعية أو الخروج منها .

كل ذلك فى اطار من المحافظة على أصل الدعوة وكيانها .

وان تجارب الحرية التعاونية فى مختلف الدول تثبت أنه لا يمكن للتعاون أن ينمو ويزدهر الا فى جو من الحرية ، وان فقدان هذا الجو يؤدى به الى الاختناق .

ان المعتدى الذى كان يسلب شعبا حريته ، كان يضع دائما فى اعتباره أن يسلب معها روح الحركة التعاونية .

ففى ألمانيا : اضطهد هتلر الحركة التعاونية حينما وجد أن اتجاهها الذى يتمثل فى الديمقراطية الاشتراكية يتعارض مع اتجاهه الاستبدادى ، فقام هتلر بفرض الرقابة الشديدة على أعمالها واصدار القوانين التى تحد من نشاطها ، وتؤدى الى تصفية جمعياتها ، كما قام بحل جميع ادارات التوفير التابعة للجمعيات التعاونية المنزلية .

وعند قيام الحرب العالمية الثانية ، قامت الجهات العمالية التابعة للحركة النازية باحتلال الكثير من المبانى والمصانع التى تمتلكها الجمعيات التعاونية .

وعندما احتل الالمان هولندا حاولوا اخضـــــاع الحركة التعاونية لسيطرتهم فأرغموا الجمعيات التعاونية على اقامة هيئة مركزية لادارة الحركة التعاونية ، وكانت هذه الهيئة تسير تبعا لاوامرهم ، وبمجرد انتهاء الاحتلال الالمانى لتلك البلاد اجتمع التعاونيون وقرروا بالاجماع حل هذه الهيئة ، واقامة مجلس اعلى بدلا منها يســـــير على الاسس التعــاونية السليمة .

وفى فيلندا : وضع الاحتلال يده على اكبر الجمعيات الناجحة بها .

وفى النمسا : قام النازيون بتشريد زعماء الحركة التعاونية وزجوا بالكثير منهم فى السجون .

وفى تشيكوسلوفاكيا : لاقت الحركة التعاونية الكثير من عنت الالمان الذين صادروا أرصدة الجمعيات التعاونية فى البنوك ، واستولوا على اكثر من ٤٠٠ متجر من متاجرها ، كما قاموا بتدمير الكثير من الجمعيات التعاونية .

وفى ايطاليا : حدث تحت الحكم الفاشستى ما حدث فى المانيا .

وعندما اشتركت كل من المانيا وايطاليا فى احتلال يوغوسلافيا كانت المنافسة بين الدولتين تدور على القضــــــاء على الجمعيات التعــاونية وتصفيتها .

كان هذا هو مبدأ الحرية ، كما دان به التعاونيون ، وهو المبدأ الذى لايزال لهم نبراسا حتى اليوم وسيظل كذلك .

فما مكان الحرية فى الدعوة الاسلامية ؟

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »

لقد انبثقت الدعوة المحمدية والقوم تسيطر على عقولهم وأفكارهم تقاليد بالية ، وعقائد فاسدة توارثوها على مر السنين :

« بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون »(١)

وبدأ الاسلام عمله بازالة هذا الفساد الذى جمدته القرون الطوال.

وكان اعتماد الاسلام فى هذه المهمة على العقل ، فاتجه اليه مخاطبا اياه ، موضحا له الحقائق ، تاركا له حرية الاختيار :

---

(١) الزخرف آية (٢٢) .

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » .

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما افل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما افل قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين ، فلما راى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا اكبر ، فلما افلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين » .

ثم يتجه الله الى رسوله ليبرز له هذا المبدأ ويؤكده :

« ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء »

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

« فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب »

ولم يكتف الاسلام بحرية العقيدة ، بل ترك ارباب كل دين وما يدينون، وقرر حماية الشعائر الدينية لغير المسلمين من أهل الذمة والمعاهدين وجعل لهم مطلق الحرية فى اقامة شعائرهم الدينية فى معابدهم وكنائسهم، وهدد كل من يحول دون قيامهم بذلك على الوجه الذى تقتضيه شريعتهم ويتطلبه دينهم .

وكانت العهود التى يكتبها خلفاء المسلمين وامراؤهم لاهل الذمة تنص على تأمين اقامة الشعائر الدينية والمحافظة على الكنائس والمعابد فضلا عن شمول ذلك التأمين على الانفس والاعراض والاموال .

بل لقد حدث ان دخل وفد من نصارى نجران مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وادوا صلواتهم فيه فى الوقت الذى كان الرسول يؤم فيه المسلمين فى صلاة العصر ، وعندما ابدى المسلمون دهشتهم لذلك ، قال لهم الرسول ما معناه : أن يتركوهم .

وعند ما فتح بيت المقدس اعطى عمر بن الخطاب اهله عهدا وميثاقا نص فيه على اعطائهم (الامان لانفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وسائر ملتهم . لاتسكن كنائسهم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم) .

واكثر من ذلك اباح الاسلام للمسلم ان تربطه بغير المسلمة من أهل

الذمة اقدس علاقة وهى علاقة الزواج ، وحرم على زوجها المسلم أن يكرهها على ترك دينها أو ينهاها عن اقامة شعائره .

وبعد سيطرة الرسول على مكة أعطى المشركين من قبائل مكة وغيرها عهودا بألا يصدهم عن البيت الحرام .. على الرغم من أن حالة الحرب كانت قائمة بينه وبينهم فى ذلك الحين ، واستمر ذلك حتى نزل قوله تعالى :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين »

وبذلك حدد الله تعالى بهذه الآية أجلا معينا للمشركين كى يأمنوا على أنفسهم فى البيت الحرام .

كما أمر الله تعالى بحسن معاملة غير المسلمين .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »

واوصي الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه بحسن معاملتهم أيضا :

(لهم مالنا وعليهم ما علينا)

(من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة)

(من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار)

(تصدقوا على أهل الاديان جميعها) .

وعند ما اعتدى ولد لعمرو بن العاص على أحد الذميين وشكاه الاخير الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر بأن يقتص منه على الفور قائلا عبارته المشهورة :

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا)

فاذا انتقلنا الى معالجة الاسلام للناحية الاقتصادية من الحرية تلك الناحية التى تخص معاملات الانسان وحقه فى الملكية والتصرف ، وجدنا أن الاسلام قد ترك للفرد كامل حريته فى هذا المجال ، متخذا دور المرشد :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (١)

---

(١) سورة التوبة ، من آية (١٠٥) .

« يايها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الا ان تكون تجارة عن تراض منكم » (١)

والاسلام ، كما لا يقبل احتكارا للتجارة . . لا يقبل ـ أيضا ـ احتكارا للجهود والخدمات ، بل يحافظ على الحقوق الشخصية للانسان حتى فى أشد الاوقات حرجا :

فعند ما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك ، كان يحدث أن يتخلف احد الجنود عن الجيش فى الطريق ، فيقولون يارسول الله ، تخلف فلان ، فيقول عليه الصلاة والسلام ، دعوه ، فان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

وهذا عبد الله بن جحش فى أثناء خروجه على رأس كتيبة فى مهمة حربية بناء على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاصحابه : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي الى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع .

وعلى بن أبى طالب عند ما جاءه أهل احدى الولايات معلنين أن بولايتهم نهرا يحتاج الى الحفر ، وأن فى حفره واعادته لهم خيرا

ثم طلبوا اليه ان يكتب للوالى ليسخرهم فى احتفار هذا النهر ، فقبل منهم على احتفار النهر وكره منهم اقتراح التسخير .

ثم كتب على بن أبى طالب الى عامله قرظة بن كعب :

(أما بعد فان قوما من أهل عملك أتونى فذكروا أن لهم نهرا قد عفا ودرس ، وانهم ان حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم ، وقووا على كل خراجهم وزاد فيء المسلمين قبلهم .

وسألونى الكتاب اليك لتأخذهم بعمله ، وتجمعهم لحفره والانفاق عليه ، ولست أرى ان اجبر احدا على عمل يكرهه فادعهم اليك : فان كان الامر فى النهر على ماوصفوا فمن أحب أن يعمل فمره بالعمل ، والنهر لمن عمل دون من كرهه ، ولأن يعمروا ويقووا أحب الى من أن يضعفوا . . . والسلام) .

وقد خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبى بكر الى

(١) سورة النساء ، من آية (٢٩) .

أختها السيدة عائشة أم المؤمنين ، فلما فاتحت عائشة أختها فى الامر قالت: لا حاجة لى فيه .

فلما قالت لها أختها : اترغبين عن امير المؤمنين ؟

قالت : نعم . انه خشن العيش ، شديد على النساء .

وهكذا اعلنت رأيها بحرية برفض الزواج من خليفة المسلمين .

وعندما جاءت فتاة الى الرسول صلى الله عليه وسلم لتبلغه أن أباها قد اختار لها ابن عمها لتتزوجه دون أن يأخذ رأيها فى هذا الاختيار غضب الرسول ، وفوضها فى رد هذا الزواج ما دامت لم تستأذن فيه .

وبعد ان حصلت الفتاة على هذا القرار المحمدى بحقها فى تقرير مصيرها بحرية ، اعلنت : لقد أجزت أبى فى اختياره ، ولكنى فقط أردت أن أعلم الناس أن ليس للآباء من الأمر شيء .

هذه الحرية التىغرس الاسلام بذرتها حتى جاءتالدعوة التعاونية لتقطف ثمارها اليانعة ، هذه الحرية الاسلامية هى التى دفعت كيث كراج أستاذ العلوم الاسلامية بمعهد هارتفورد الى أن يقول :

(ان الحرية الاقتصادية فى الاسلام محمية من الشرور التى وصمت الصور الغربية بها ، والاسلام يضرب بيد من حديد على أيدى المحتكرين والمتحكمين فى الأسواق) .

الفصل العاشر

الوحدة

(عليكم بالجماعة فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية)

« حديث شريف »

(والأمة قد تبنى على الانفرادية ، فيسعى كل فرد من أبنائها ليعمل من أجل نفسه ، ومن أجل رفع مستواه .. ومثل هذه الأمة ستكون دائما ضائعة ، أما المجتمع الاشتراكى التعاونى فهو المجتمع الذى يشعر كل فرد من أبنائه بأن عليه واجبا تجاه نفسه ، وأن عليه واجبا تجاه الآخرين)

« جمال عبد الناصر »

ومبدأ الوحدة من المبادىء الهامة فى التعاون ، فكما انه يمكن القول بأن الوحـــدة هدف من أهداف التعاون ، كذلك يمـــكن القول بأنهـــا من اسباب وجوده .

فالواقع أن الوحدة لابد أن تكون ظاهرة ملازمة للحركة التعـــاونية فى جميع مراحلها .

فالفرد الواحد لايمكن ان يكون جمعية تعاونية بمفرده ، وانما تتكون هذه الجمعية من افراد متحدين يجمعهم غرض واحد ، يحققونه بوحدتهم على وجه أحسن مما لو حاول كل منهم أن يحققه على انفراد .

ومن هنا كان لا بد من الوحدة لتأسيس اتحاد تعاونى ، فالجمعية التعاونية الواحدة لا يمكنها أن تنشيء اتحادا تعاونيا ، وانما لابد لايجاد هذا الاتحاد من وجود عدة جمعيات ترغب فى تكوينه لتأدية عمل او اعمال لا يتيسر لكل منها أن تقوم به منفردة .

والقول نفسه يمكن أن ينطبق على كل مؤسسة او منشأة تعاونية . فان العمل الذى لا يمكن لأى فرد أن يؤديه ، يمكن أن يقوم به اثنان ، والأمر الذى لاتســـتطيع الجمعية الواحدة أن تقوم به ، يمكن لأية مجموعة أن تتعاون فى أدائه .

ويقول الرائد التعاونى الأول وليم تومسون : (ان العمال مجموعات من الأفراد ، كل ينتج حاجة أخيه) : أى انه اذا أزيلت الحواجز بين هذه الافراد والمجموعات ماشعر فرد أو مجموعة منهم بحاجة .

والتعاون يهدف الى ازالة هذه الحواجز لخير اعضـــائه جميعا ، ولذلك كان من أهدافه الغاء الوسطاء فى كل نشـــاط يتجه اليه ، موفرا بذلك ارباحهم لتعود على التعاونيين انفسهم .

وكما يقول وليم تومســـون : (فليعمل كل لأخيه : كـــونوا الموردين الفعليين لحاجاتكم كل للآخر ، كونوا المنتجين والمستهلكين والســـادة وارباب الاعمال) .

وثمة تعاونى آخر هو « وليم كنج » يصور لنا هذا المبدأ فى قوله :

(ان الانسان فى حياته الاجتماعية لايحتاج الا لشيئين : اجر عمله وصديق مخلص ، فاذا كان ثالث لهما ، امكنهم أن يتعاونوا معا فى ادخار مال ينفقون منه على مايعترض حياتهم من طوارىء وكوارث وان يتعاونوا فى شراء حاجاتهم بسعر معتدل ، واصبح فى مقدورهم ان يستغلوا وقت فراغهم فى انتاج سلع يتبادلونها .

فلو رغب عدد اكبر من الافراد أن يعملوا معا طبقا لهــذه الأسس لتيسر لهم تكوين راس مال معقول ، ولأمكنهم اقامة متجر تعاونى تتوافر له اسباب البقاء ، حتى اذا ما كثر طلب اعضاء هذا المتجر على سلعة بذاتها أمكن انتاجها للمستهلكين) .

وهكذا أخذ التعاون بمبدأ الوحدة ، فاتحــد الأفراد ليكونوا جمعية تعاونية ، واتحدت الجمعيات لتكون اتحادات او جمعيات مشــتركة قد تتحد بدورها لتكون اتحادا عاما للدولة .

بل ان الحركة التعاونية تتجاوز فى تطبيقها لهذا المبدأ حدود الدولة فتعتبرها مكونة الحلف التعاونى الدولى وغيره من المؤسسات التعاونية التى تضم الى عضويتهــا جمعيات تعاونية من دول شتى اتحدت جميعا لتبحث عن الخير المشترك لها ولأعضائها .

واذا القينا نظرة على الحركة التعاونية فى دولة من الدول .. ما وجدنا هذه الحركة تحيد عن هذه الخطوط التى يتكون منها مبدأ الوحدة .

ففى السويد : يشــكل الافراد الجمعيات التعاونية الزراعية التى تتحد فى كل مقاطعة مكونة (اتحاد المقاطعة) وهذه الإتحادات تتجمع بدورها فى اتحادات نوعية على مستوى الدولة تبعا للأغراض التى تعمل من اجلها ، وفى السويد اثنا عشر اتحادا من هــذه الاتحادات الوطنية النوعية وتكون هذه الاتحادات جميعا ما يسمى « الاتحاد العام » للزارعين السويديين) .

وفى الهند : كثيرا ما يحدث اتصــال فى صــورة ما بين جمعية استهلاكية بالمدينة وجمعية صناعية أو جمعية زراعية فى القرية ، ويتم هذا الاتصال لمصلحة الجمعيتين فتفيد الجمعية الاولى من الحصول على حاجة اعضائها من المواد الاستهلاكية بأسعار معتدلة ، وتفيد الجمعية الاخرى من تسويق منتجات أعضائها دون تدخل أحد الوسطاء .

وفى انجلترا : قد تتحد عدة جمعيات لانشــاء معمل للألبان أو مخبز كهربى كما تتحد الجمعيات الاستهلاكية مكونة الجمعية التعاونية للاتجار

بالجملة التى تمتلك ٢٦٠ مصـــنعا ، وتعمل فى نحـــو مائتى مليون من الجنيهات .

وكذلك تتحد الجمعيات الاســتهلاكية مكونة مؤسسة للتأمين على منشآتها وحياة أعضائها وعمالها .

وفى انجلترا أيضا يطبق نظام العضوية الشـــاملة للدولة الذى بمقتضاه يتصف العضو التعاونى بصفتين :

الاولى ــ صفته كعضو فى جمعيته التعاونية .

والأخرى ــ صفته كعضو فى الحركة التعـــاونية للدولة بأسرها ، وتتيح له هذه الصفة الأخيرة أن يتعامل مع اية جمعية داخل انجلترا .

كما أن الحلف التعاونى الدولى الذى يتخذ من لندن مقرا له يضم الى عضويته جمعيات تعاونية منجميع أنحاء العالم ، والهدف منه هو نشر الحركة التعاونية فى العـــالم لتحل محل النظم القائمة فى شتى نواحى الحياة .

وكان بفرنسا فى سنة ١٨٩٠ اتحاد تعاونى يضم الى عضـــويته ستين جمعية تعاونية .

وفى بلجيكا : تتحـــد الجمعيات التعاونية مكونة فيما بينهـــا جمعية عامة تقوم بممارسة أعمال الانتاج والاتجـــارة ، ونشر الثقافة والتعليم التعاونى .

وفى النرويج : تقـــوم الجمعيات الاســـتهلاكية فيما بينهـــا بتكوين جمعية للاتجار بالجملة وتمتلك هـــذه الجمعية مطاحن للحبوب ومصـــانع لانتاج الصابون . والزيوت والشوكالاته والقبعات والاحذية .

وفى فنلندة : اجتمعت اثنتا عشرة جمعية تعـــــاونية عـــام ١٩٠٤ لتكون فيما بينها جمعية تعاونية للاتجار بالجملة ، تقوم بتوريد الســـــلع للجمعيات التعاونية المنضمة اليها .

وفى سويسرا : اتحاد يضـــم الجمعيات المنزلية ، ويقوم بانتاج بعض السلع الاستهلاكية ، كما أن بها اتحـــادا للزراع يقوم بخدمة الجمعيات التعاونية الزراعية .

وفى الاقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحدة : تتحـــد الجمعيات التعاونية لتساهم فى ايجاد منشآت تعاونية عامة تقوم بخدمتها وخدمة أعضائها .

ففى المجال الاستهلاكى تساهم الجمعيات التعاونية فى تكوين راس مال الجمعية التعاونية للاتجار بالجملة .

وفى ميدان التعاون الانتاجى ساهمت الجمعيات التعاونية فى انشاء الجمعية التعاونية للبترول التى يبلغ راس مالها نحو مليونين من الجنيهات .

وفى مجال التمويل التعاونى ساهمت الجمعيات التعاونية فى راس مال بنك التسليف الزراعى والتعاونى الذى أصبح رأس ماله مشتركا بين الحكومة والجمعيات التعاونية .

وعندما قررت الثورة العربية تطبيق قانون الاصلاح الزراعى - اهتمت فى الوقت نفسه بالنص فى هذا القانون على اتحاد الزراعيين المنتفعين فى جمعيات تعاونية لتقوم بخدمتهم وخدمة أراضيهم ، وبذلك تتلاشى الأضرار التى يمكن أن يؤدى اليها تفتيت الملكية .

وقد ادت التنظيمات الجديدة للحركة التعاونية فى مصر الى وضع نظام هرمى للحركة التعاونية ، تصطبغ كل درجة من درجاته بمبدأ الوحدة .

فالأفراد يتحدون فى جمعية القرية المحلية ، والجمعيات المحلية تتحد فيما بينها لتكون جمعيات مشتركة بالمراكز ، وتتجمع الجمعيات المشتركة بدورها مكونة جمعيات مركزية بعواصم المحافظات ، وهذه تتحد ايضا لتكون جمعية عامة لمصر .

والوحدة مبدأ دعا اليه الاسلام ، وطبع به الكثير من أموره .

فالحج وصلاة العيدين وصلاة الجمعة وصلاة الجماعة . كلها تهدف الى جمع مجموعات من الناس وتوحيدهم على مستويات مختلفة لتأدية غرض مشترك يربطهم جميعا هو العبادة ، وهذا هو معنى الوحدة نفسه فى الحركة التعاونية (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم .... الى قوله وليطوفوا بالبيت العتيق) .

وقد نزلت الدعوة الاسلامية على اقوام ظالمين عملت فيهم معاول التشتت وحب الذات ، فقسمتهم الى شيع وأحزاب لاهم للقبيلة أو للطائفة منهم الا البحث عن مصلحتها الشخصية فى انانية تصرفها عن النظر الى مصالح غيرها ، هذا ان لم تدفعها الى تحطيم مصالح الغير .

فجاء الاسلام ليوحد بين كل هؤلاء : (لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما الفت بين قلوبهم ، ولكن الله الف بينهم) .

وهكذا عرفهم الاسلام أن هناك أسلوبا للحياة اكثر نفعا وفائدة لهم جميعا ، ذلك هو أسلوب التعاون فى ظل الوحدة .

ويتلقى الرسول الدعوة ليبلغها قوية ، وليبنى بهــا مجتمعا جديدا يقوم على الحب والألفة .

(ان أحبكم الى واقربكم منى مجلسا (١) يوم القيامة أحاســـنكم أخلاقا .. الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون) .

ويربط الرسول صلى الله عليه وسلم برباط قوى بين القرآن الكريم من جهــة والرغبة فى الوحـــدة والائتلاف من جهــة أخرى : (اقــرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فاذا اختلفتم فقوموا عنه) .

وقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم مبدأ الوحدة بنجاح بين أكبر مجموعتين ظهرتا فى عهده ، وهما مجموعتا المهاجرين والانصار : فعندما ضمتهم يثرب جميعا بادر الى تنفيذ أول مشروع اسلامى للوحدة ، وهو ما اطلق عليه (مشروع المؤاخاة) ، وعندما بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ مشروعه ، قال لأصحابه : (تآخوا فى الله أخوين أخوين) ثم أخذ على بن أبى طالب وقال : (هذا أخى) فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب أخوين .

كذلك صار حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى الرســول أخوين ، وتآخى أبو بكر الصديق مع خرجة بن زيد من الخزرج ، وأصبح كل واحد من المهاجرين متآخيا مع أحد الأنصار .

وكان كل أنصارى يمد أخاه المهاجر بما قد يحتــاج اليه من مال أو غذاء أو كساء ، بل انهم كانوا يتوارثون هذا الاخاء ارثا مقدما على القرابة فاذا مات المهاجر ورثه أخوه الانصارى ، واذا مات أحد الانصــار ورثه أخوه المهاجر ! وظلت هذه القاعدة فى الارث متبعة الى أن نهى الله عنها .

« واولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » .

وهكذا حقق الرسول بهذه الوحدة فوائد عظيمة عادت على المسلمين ودينهم بالنفع والخير ، فقد واجهوا بوحدتهم هذه جيوشا اكثر عددا من جيوشهم ، وأكثر منها عدة فانتصروا عليها ، وكان من الممكن — بلا وحدة — أن تستنفد طاقتهم فى مشاحنات وانقسامات دامية .

---

(١) وفي رواية : مجالس .

ثم ان الرسول بهذه الوحدة قد أزال الشعور بالغربة عن المهاجرين الذين تركوا أهليهم وعشيرتهم وأموالهم سعيا وراء الاسلام .

وبعد أن استقر الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، اتجه للقضاء على عامل آخر من عوامل الفرقة والانقسام ، فجمع اليهود وكتب بينهم وبين المهاجرين والأنصار معاهدة (للامن المتبادل) تضمنت قواعد من الوحدة والائتلاف .

(المسلمون أمة واحدة من دون الناس)

(وان المؤمنين بعضهم موالى بعض) .

(لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم انفسهم) .

وفى أثناء مرضه صلى الله عليه وسلم اتجه الى المسلمين حاثا اياهم على التمسك بالوحدة والائتلاف من بعده :

« الا انى لاحق بربى ، وانكم لاحقون بى ، فأوصيكم بالمهاجرين خيرا ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم ، وأوصيكم بالانصار خيرا فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم .. ان تحسنوا اليهم ، ألم يشاطرونكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ » .

وفى خطبة الوداع قال صلى الله عليه وسلم :

« أيها الناس ، ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم . لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

وعندما حدثت المجاعة فى العام المسمى بعام « الرمادة » تجلت فائدة الوحدة ، ومقدار استيعاب المسلمين للدروس التى لقنهم الرسول اياها فى هذا المجال .

فقد توالى وصول المؤن الى المدينة من مختلف الامصار مساهمة منها فى تخفيف أثر هذه الكارثة ، فكان أبو عبيدة أول من قدم على المدينة ومعه اربعة آلاف راحلة من الطعام قام عمر بن الخطاب بالاشراف على تقسيمها على اهل المدينة ، ثم تتابع الناس بالمؤن .

وهكذا تضرب الدعوة الاسلامية أروع الأمثلة فى تطبيق مبدأ الوحدة .

خاتمة

رأينا فى الفصول السابقة كيف أن الاســـلام لم يتخط واحدا من مبادىء التعاون الا كان له مقرا وراعيا ، واننا لنجد فى ذلك دافعـــا الى اعادة النظر فى تاريخ التعاون .

لقد انفرد علماء الغرب بوضع التاريخ المكتوب للتعاون ، ولكنهم كانوا خلال ذلك جاهلين او متجاهلين أن هناك فى الشرق قد هبطت منذ قرون طويلة دعوة سماوية سامية تأخذ من التعاون أساسا وتجعل من مبادئه منهاجا .

يقول مؤرخو الغرب : ان أول الدعاة للتعاون هما : الانجليزى روبرت اوين (١٧٧١ م) ، والفرنسي فرانسوا فورييه (١٧٧٢ م) .

ولكن ذلك يدعونا الى التساؤل : أين كان هؤلاء الدعاة عندما حمل محمد صلى الله عليه وسلم دعوة التعاون الأولى ، تلك الدعوة التى انبثقت عن الدين الاسلامى قبل أكثر من الف سنة من ميلاد هؤلاء الدعاة .

ثم يقول هؤلاء المؤرخون : ان لفظة (تعاون) لم تستعمل فى انجلترا الا حوالى عام ١٨٠٠ م ثم أخذ الفرنسيون عن الانجليز هذه الكلمة ، ثم انتشرت بعد ذلك فى سائر أنحاء أوربا ، وقد فات هؤلاء أن هذا اللفظ بحروفه كان يجلجل قبل ذلك بعشرة قرون ، مضيئا بمعناه ومضمونه انحاء الجزيرة العربية ثم أنحاء المعمورة بعد ذلك .

ويقول هؤلاء المؤرخون : ان أول الجمعيات المنظمة قد اسست فى كل من انجلترا وفرنسا قرابة هذا التاريخ ، وان كانت المانيا وروســيا ايضا تتنازعان هذا الشرف حيث يعلن بعض المؤلفين الروس أن التعاون شوهد فى روسيا فى عهد بطرس الأكبر عام ١٧٠٣ م .

وانه لمن دواعى الفخر للدعوة الاسلامية أن تكون سببا فى انشاء جمعيات تعاونية منظمة فى بعض البلدان الاسلامية التى دخلتها قبل ذلك بمئات السنين ومن هذه البلاد تركيا والعراق .

وهذا ابن بطوطة الرحالة الاسلامى يصف لنا رحلته الاولى فى نحو

سنة ١٣٠٥ م الى ١٣٤٩ م يتحدث عن هذه الجمعيات التعاونية التى كان لها دور كبير فى رحلته الى تلك البلدان .

فيقول ابن بطوطة فى رحلته عن بلاد الاناضول : انه أعجب بنظام جماعات الاخوان أو الفتيان (وهى جماعات تضم الشبان غير المتزوجين ابناء الطائفة أو القرية الواحدة ، فيقومون عليهم رئيسا لهم ، ويتخذون مقرا لجمعيتهم ويتعاونون على البر واكرام الضيف الغريب ، ويشتركون فى الطعام والغناء والرقص ، وما الى ذلك ، ونظامهم يتصل بنظام الفتوة فى الاسلام ، كما أن فتيان مدينة قونية لهم فى الفتوة سند يتصل الى على بن ابى طالب) .

وفى موضع آخر يقول ابن بطوطة انه :

ليس فى الدنيا مثلهم اشد احتفالا بالغرباء من الناس ، واسرع الى اطعام الطعام ، وقضاء الحوائج ، والاخذ على أيدى الظلمة . وفى كل زاوية أو قرية لهم زاوية فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخرج الاصحاب بالنهار فى طلب معايشهم ، ثم يأتون بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام فان ورد فى ذلك اليوم مسافر على البلد انزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافة لديهم ، ولا يزال كذلك حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعـــامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغد .

وهذا الكلام الذى ذكره ابن بطوطة تمكن ترجمته ترجمة أمينة بلغة التعاون الحديث بانه كانت هناك جمعيات تعاونية استلهمت من الدعوة الاســـلامية ، وسارت طبقا للقاعـــدة القرآنية (وتعـــاونوا على البر والتقوى) .

وان هذه الجمعيات كانت قروية تشمل أبناء القرية الواحدة ، او طائفية تشمل عددا من ابناء طائفة واحدة .

كما كانت هذه الجمعيات تعقد جمعيتها العمومية لانتخاب رئيس لادارتها من بين أعضائها ، وكان يسود اجتماعاتهم الديمقراطية الاشتراكية فجميع مشروعاتهم تأتى بالاتفاق كما أن أعمالهم تتسم بالاشتراكية والمساواة .

وكان لتلك الجمعيات مقار مؤثثة ، وكان الاعضاء يعقدون اجتماعات يومية ايتشاوروا فى أمورهم .

وأموال هذه الجمعيات هى أموال اعضائها ، أما طريقة انفاق هذه الاموال فلعلها اشبه بها فى الجمعية الروتشدالية الاولى : ذلك ان هؤلاء

الاعضاء كانوا يتعاونون فى شراء المواد الاستهلاكية اللازمة لهم بسعر الجملة ليستهلكوها فيما بينهم بطريقة تعاونية ، وبذلك كان يتحقق لهم نوعان من الوفر : النوع الاول هو الناتج عن شراء كميات كبيرة بسعر الجملة .

والنوع الآخر من الوفر يتمثل فى ذلك الاقتصاد فى الاستهلاك الذى يتحقق عند اشتراك أكثر من شخص فى هذا الاستهلاك .

أما طريقة انفاق هذا الوفر ، فاننا نلاحظ أن اعضاء هذه الجمعيات كان لديهم طريقان لانفاق مايوفرونه :

أما الطريق الأول فيتمثل فى اكرام الضيف ، وذلك اقرب مايكون الى المعونة الاجتماعية .

والطريق الآخر يتمثل فى الناحية الترفيهية التى يحققها الاعضاء لأنفسهم من رقص وغناء وما الى ذلك .

ونعود مرة أخرى الى اقوال ابن بطوطة حيث يذكر انه صادف مثل هذه الجمعيات فى مدينة ايطالية ، وكانت تلك الجمعية تضم نحو ٣٠٠ الى عضويتها ، وكلهم من اهل الصناعات ، وكان العضو الذى انابته الجمعية فى دعوته باسمها يعمل « اسكافيا » .

وفى مدينة لاذق استقبله ممثلو جمعيتين للفتيان وتحاكما الى القرعة لضيافته ، وعند ما حل عليه عيد الفطر وهو فى هذه المدينة شاهد اعضاء الجمعيتين وقد خرجوا فى استعراض كبير حاملين الاسلحة والاعلام التى ترمز الى طوائفهم .

وقد صادف ابن بطوطة أمثال هذه الجمعيات فى مدن اسلامية كثيرة أخرى منها ميلاس وبرجين ، وقيسارية ، وسيواس .. الخ .

ويذكر ابن بطوطة انه لما قدم الى سيواس — خرج الى لقائه ممثلو جمعيتين فنزل عند من طلبه منهما أولا ، وبعد ثلاثة أيام استسمح الامير رئيس الجمعية فى نزول ابن بطوطة بضيافته الا أن الاخير اعترض قائلا له : (فليكونوا عندنا وضيافتك تصلهم ، فوافق الامير) .

وهذا يدلنا على أن تلك الجمعيات كانت لها شخصية معترف بها حتى من الجهات الرسمية ، وأن كلمتها كان لها اعتبار كبير .

كل هذا يثبت لنا بالدليل القاطع أن (التعاون سواء من ناحيته المعنوية والروحية ، أو من ناحيته النظامية ، قد بدأ فى الشرق بوحى من الدعوة الاسلامية) .



الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**


الدار القومية للطباعة والنشر



نبذة عن المؤلف :



الاستاذ مراد محمد على حائز على بكالوريوس التجارة من جامعة عين شمس عام ١٩٥٣ وهو يعمل مديرا لبنك القرية فى سبرباى وقد تخصص فى شئون التعاون الريفى ، ونشر عديد الابحاث عن التعاون فى الصحف والمجلات.



هذا الكتاب :

سأل أحد الفلاحين المؤلف فى احدى محاضراته : لماذا تضربون دائما المثل بالتعاون فى الخارج ، أليس فى الاسلام تعاون ؟.. وقد حفز هذا السؤال المؤلف على اعداد كتابه هذا الذى يبين فيه أن التعاون قد بدأ فى الشرق بوحى من الدعوة الاسلامية . ثم يستطرد فيتحدث عن أهداف التعاون ومبادئه وآثاره فى التكافل الاجتماعى الذى يقوم عليه المجتمع الاشتراكى التعاونى .

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١٠٤

الثمن ١٥ ص